مكّة المكرّمة دراسة في جغرافية المدن

الدكتور سمير الدسوقي عبدالعزيز

تعود المعلومات الواردة في هذه المقالة إلى نهايات القرن الرابع عشر الهجري (١٣٩٧هـ)، وقد رأت إدارة المجلّة إدراجها لما تحويه من معلومات وفوائد قيّمة.

لا تقتصر وظيفة المدن علىٰ تقديم الخدمات الاقتصادية وغيرها لسكّانها أو لسكان المناطق المحيطة فقط، فهناك مدن ذات طابع روحي تقوم على الوظيفة الدينية[١]؛ فلقد كان الدين عاملاً هامّاً في نشأة كثير من المدن، ولا يزال أيضاً من عوامل تطورها ونموها. فالسومريون أقاموا مدنهم للعبادة أساساً، وفي مصر واليونان سميت المدن بأسماء الآلهة: (بوصير ـ بويسة ـ أثينا)، وما كان يتأتى لمدينة طنطا ذلك الحجم الكبير لولا العامل الديني.

وفي العصور الوسطىٰ لعب الدين دوراً كبيراً في نشأة كثير من المدن الأوروبية التي ظهرت كمراكز إشعاع ونشر المسيحية، بل إنّ الذي حفظ لأوروبا

(١) Beaujau - Garnier, J. and Chabot, G (1971) Urban Geography, London, p, 168.

مدنها خلال تلك العصور وأعاد بناءها بعدها هي الكنيسة.

وكان الإسلام بنّاءً للمدن أيضاً، فالمسجد أوّل ما يقام في المدينة الإسلاميّة الجديدة (الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع...)، وتحوّل اسم يثرب بعد الإسلام إلى المدينة.

وفي العصر الحديث، يمكن أن نلمس الأثر المدني للدين أيضاً، ففي أمريكا الجنوبية، وفي الأقصاع الشبه قطبية، أقيمت المساكن حول الكنائس، حيث يتردد عليها أصحابها مرّة كلّ أسبوع، (مدن الآحاد Villes des Dimanches).

وهكذا في كل العصور، كانت فترات النشاط المدني هي الانتفاض الديني، وعلى العكس كانت المناطق التي تأخرت كثيراً في حياة المدن هي التي تأخرت في التطور الديني، كالبربر القدماء والجرمان واليابان[1].

ومكّة المكرّمة مدينة دينية وتجاريّة منذ أقدم العصور، فقد حظيت بأوّل بيت وضع للناس، وهي على الطريق الرئيسي بين اليمن والشام، ممّا أكسبها خصائص ومميزات لا تنافسها فيها مدينة أخرىٰ في شبه جزيرة العرب، لذلك نزلت مكّة قبائل عديدة استقرّت حول البيت الحرام الذي تفجّر إلىٰ جواره بئر زمزم كمورد دائم للشرب في وادٍ مقفر غير ذي زرع.

ولقد عوّض البيت العتيق مكّة هذا النقص في الموارد الاقتصادية، فأصبحت مركزاً هامّاً للحياة الدينية والتجارية في الجزيرة والعالم الإسلامي فيما بعد، ونعم سكانها بالأمن والحياة المستقرة.

ولمكّة أسماء كثيرة: بكة، والباسّة، وأم القرى، وصلاح، وأم الرحم، والحاطمة. ويقال: إن بكة موضع البيت، ومكّة هي الحرم كله[2]. وهي أم القرى؛ لأن كل ما حولها أتباع لها، وقد أعلن أحد العلماء أن مكة مركز اليابسة في الكرة

(١) جمال حمدان، (١٩٧٢) جغرافية المدن، القاهرة، ص ١٧٥.

(٢) الأزرقي (١٩٦٥)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ١: ٢٨٠ ـ ٢٨٢. مطبعة دار الثقافة بمكة.

الأرضية، وذلك في تحقيقٍ استعان فيه بالحاسب الالكتروني وبمعادلات وعمليات رياضية معقدة، أعدّ على أساسه خريطة جديدة للكرة الأرضية[١].

وفي الكتب اليونانية، سميت «مكوربا»، وهو اسم مشتق من كلمة «مكورابا» بمعنى مقدس أو محرم[٢] ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل سنة ١٨٩٢ ق.م. وفيها ولد النبي محمد، وفيها بعث وظهرت دعوة الإسلام.

الموقع والموضع

١ ـ موقع مكة :

تقع مكة المكرمة في منطقة تحيط بها التلال القاحلة الجرداء[٣] على دائرة العرض ٢١/٢٥ْ شمالاً، وخط طول ٣٩/٤٩ْ شرقاً، وهي عاصمة الأمارة التي تعرف باسمها في غرب المملكة العربية السعودية. وترتفع مكة عن سطح البحر بحوالي ٣٦ متراً، كما تبعد عن ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر بنحو ٧٣كم.

وعلى هذا، تقع مكة ضمن سهل تهامة الساحلي (السواحل الغربية لشبه جزيرة العرب) الممتد على طول ساحل البحر الأحمر من أقصى شماله عند خليج العقبة إلى نهايته الجنوبية عند باب المندب.

ويحدّ سهل تهامة من الشرق جبال الحجاز التي تبدأ على شكل هضبة في الشمال، تأخذ في التقطّع والارتفاع بالاتجاه جنوباً. وهذه الجبال تتكوّن من صخور ما قبل الكمبري التي كثيراً ما تغطيها الطفوح البركانية حيث تعرف بالحرات[٤].

ويتميز سهل تهامة بشدة حرارته وركود ريحه وبأرضه الرملية الحصوية والملحية، ولكنها لا تخلو من بعض المواضع الصالحة للزارعة، وهي تلك المواضع

---

(١) حسين كمال الدين (١٩٧٧)، موقع مكة من الكرة الأرضية جريدة الأهرام، القاهرة ـ العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٧/٢/٤.

(٢) Encyclopedia Britannica (1965), prinded in the U.S.A., p.30.

(٣) Moore, W.G. (1971), (The penguin Encyclopedia of places, England, p. 471

(٤) Fisher, W.B. (1971), (The Middle East), London, o. 443

التي غطّتها إرسابات رملية وطينية جرفتها الأودية إلى الساحل.

وسهل تهامة ضيّق في معظمه لاقتراب الجبال من البحر، ولكنه يأخذ شكلاً حوضياً وسهلياً، ويتوغل نحو الداخل لأكثر من ٧٠ كيلو متراً في منطقة مكة ليدخلها في نطاقه.

وبذلك أصبحت مكة بساحلها على البحر الأحمر بوابةً لوسط شبه الجزيرة ومدخلاً طبيعياً إليه، هذا بالإضافة إلى أن مكة في موضع تصل المسافة فيه بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلى أدناها. وكان لهذا الموقع أهمية كبرى لحياة قريش التجارية، فاستطاعت أن تتصل بسهولة بداخل شبه الجزيرة من ناحية، وبموانئ ساحل الخليج الفارسي من ناحية أخرى. ولقد زاد من أهمية هذا الاتصال ما كانت تعانيه مكة ومدن الحجاز الأخرى من عدم قدرتها على إعالة سكانها أو الوافدين إليها للحج والتجارة، ولكنها بفضل موقعها أمكنها الحصول على كميات إضافية من الطعام مقابل الخدمات التي تقدمها للقوافل المارة.

ولم يكن من حائل برّي يعوق اتصال منطقة مكة بإيران في الشمال الشرقي، أو بالشام في الشمال الغربي، فصحراء النفود تتدرج إلى الشمال في رفق وسهولة، كما أن الطريق الساحلي إلى اليمن سهل ومنبسط إلى حد كبير.

وكانت أهم الطرق التجارية التى سلكتها القوافل في شبه الجزيرة وتمرّ بمكة هي:

١ ـ الطريق الممتد على طول خط الاستقرار الموازي لجبال السراة بين اليمن والشام، ويمر هذا الطريق بكل من نجران ـ الطائف ـ مكة ـ المدينة ـ مدائن صالح ـ تبوك، ثم إلى الشام.

٢ ـ طريق يمتد من مكة نحو الشمال الشرقي متابعاً موارد المياه في وادي الرمة إلى رأس الخليج الفارسي[١].

ولهذا كان لموقع مكة أهمية تجارية كبرى بين مناطق الاستقرار المحيطة: فارس والروم شمالاً، واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوباً[٢] وكانت المنطقة حلقة اتصال بين الحضارات الشمالية والجنوبية، ولم تكن في عزلة جغرافية كالتي عاشت فيها كثير من مناطق الاستقرار الكبرى في آسيا الموسمية.

وجاءت شبكة الطرق والمواصلات المدنيّة مؤكدةً لهذا المعنى، فمن أهم الطرق البرية بالمملكة العربية السعودية طريقان، كلاهما يمر بمكة المكرمة:

١ ـ طريق الدمام ـ جدة: طوله ١٥٠٠ كم، ماراً بالرياض ـ الطائف ـ مكة. وهو في مقدمة الطرق الرئيسية بالمملكة، سواء من ناحية الهيكل العام أو من الناحية الوظيفية. وأهمية هذا الطريق تعود إلى أنه يربط بين منطقة الخليج الفارسي وموانئ البحر الأحمر، هذا بالإضافة إلى أنه يربط المناطق الثلاث بالمملكة الشرقية والوسطى والغربية بعضها البعض.

---

(١) Kammerer, A. (1929), (La Mer Rouge), Le Caire, p. 47.

(٢) Semple, E.C. (1911), (Intluences of Geogrephic Enviroment), London, p.p. 404 - 406.

ثم إن الطريق يصل بين أهم موانئ المملكة (الدمام ـ جدة) ومراكز العمران الداخلية، وعن طريقه يتم نقل الواردات إلى الداخل، كما أنه يساعد في توزيع فائض الإنتاج الزراعي ـ خاصة الخضر والفاكهة ـ بين المناطق، ويعمل في خدمة الحجاج أيضاً.

٢ ـ طريق تبوك ـ أبها: وطوله ٢٠٨٣ كم، ويربط بين الحدود الشمالية والجنوبية للمملكة العربية السعودية، ويعدّ من أعظم الطرق البرية في البلاد العربية جميعاً.

ويمرّ الطريق بعدد من أكبر مراكز العمران في المملكة وأهمها: تبوك ـ المدينة ـ جدة ـ الطائف ـ أبها ـ نجران ـ جيزان. وقد ساعد هذا الطريق على اتصال السعودية بالدول الواقعة إلى الشمال منها حتى أوروبا عبر الأردن وسوريا وتركيا، ويؤدي خدمات كبيرة في نقل المسافرين للحج والزيارة في الدول المجاورة. كما أنه خلال فترة إغلاق قناة السويس (٦٧ ـ ١٩٧٥م) كان بمثابة الشريان الذي تم عن طريقه نقل معظم واردات البلاد التى كانت تفرغ في ميناء بيروت، ثم تشحن إلى المملكة بواسطة سيارات خاصة[١].

وبالإضافة إلى هذين الطريقين الرئيسين يربط بين مكة والمناطق المحيطة شبكة من الطرق، تزيد من أهمية موقعها إلى حدّ كبير، ولعل أهم هذه الطرق الطريق الذي يصل بين مكة وجدة، ميناء الحج الرئيسي على البحر الأحمر.

والطريق بين مكة وجدة يتبع طريق الحج القديم، فيبدأ من جدة مخترقاً التلال الرملية الجافة وبعض الأراضي الخصبة في وادي فاطمة. وبعد الشميسي يمر الطريق تحت سفح سلسلة جبال الحجاز الرئيسية عبر وادي شريف الرملي أحد روافد وادي فاطمة، حيث يقوم شاهدان يشيران إلى بداية منطقة الحرم والتي

(١) محمّد الرويثي، (١٩٧٧)، الانتاج الغذائي في المملكة العربية السعودية: ١٤٣ ـ ١٤٤، رسالة ماجيستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة.

يحرم دخولها على غير المسلمين. ثم يتابع الطريق سيره إلى أن يدخل مكة من ناحيتها الغربية. والطريق من طرق الدرجة الأولى، وطوله نحو ٧٣كم.

وعند «الشاهدان» يخرج طريق فرعي ـ طريق الخواجات ـ ليدور حول مكة من الجنوب إلى أن يتصل بطريق مكة ـ الطائف خارج منطقة الحج في منى وعرفات. ويتبع الأجانب هذا الطريق عند اتجاههم إلى مدينة الطائف.

ويربط بين مكة والطائف طريقان: الأول: الطريق الشمالي الذي يتبع وادي فاطمة ثم وادي اليمانية، وقد هجر هذا الطريق منذ عام ١٩٦٥م عندما بدأ تشغيل الطريق الثاني.

أما الطريق الآخر، فيبدأ من شرق مكة مخترقاً منطقتي منى وعرفات، ثم يصعد منطقة الجبال بين مكة والطائف في طريقٍ كثير الانحناءات، يتعرض للانقطاع عند سقوط الأمطار الغزيرة فوق «منطقة الهدا» التي ترتفع نحو ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب مدينة الطائف، فتسقط كتل من الصخر على الطريق، وتتوقف الحركة عليه. وقد يستمرّ التوقف أحياناً لعدة أيام حتى تتم إزالة الصخور وإصلاح الطريق وتأمينه للمسافرين. ويبلغ طول الطريق نحو ٨٧كم، منها ١٧كم في المنطقة الجبلية.

والطريق الثاني ـ وهو المستخدم حالياً ـ لا تتوقف الحركة عليه وخاصة في موسم الحج أو في فصل الصيف، وهو مزوّد بوسائل الإرشاد ونقط الإسعاف، ومع ذلك فالحوادث الخطيرة كثيرة، مما دفع الحكومة لأن تعهد إلى إحدى الشركات مهمّةَ رصف الطريق الأول وإعادة تشغيله. وقد أوشكت الشركة على الانتهاء من عملها، وينتظر أن يبدأ التشغيل قريباً. والطريق طوله نحو ١٤٥كم، ويساعد في تخفيف الضغط على الطريق المستخدم حالياً، كما أنه يمرّ في مناطق زراعية خصبة توفر لمدينتي مكة وجدة جزءاً من احتياجاتهما من الخضر أو الفاكهة.

كما يربط بين مكة والمدينة طريق مرصوف طوله حوالي ٤٨٥كم (٣٣٥كم

في خط مستقيم)، ويتبع الطريق من مكـة وادي فـاطمة إلى أن يـلتقي بـالطريق الموصل بين المدينة وجدة عند بدر تقريباً، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي مخـترقاً الجبال ليدخل المدينة من ناحيتها الجنوبية الغربيّة. وظل يطلق على هذا الطـريق لفترة طويلة اسم «الدرب السلطاني»[1].

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الطرق التي تربط بين مكة والقرى المحيطة بها في كل من وادي فاطمة أو منطقة خليص الزراعية الخصبة، وكذلك تلك التي تربط بين مكة وجعرانة، أو بين مكة ومنطقة شعائر الحج في منى وعـرفات والمـزدلفة. والطرق الأخيرة متسعة وفسيحة، أزيلت بعض التلال التي كانت تقف عـقبةً في طريقها خلال السنوات الأخيرة، وقد يصل عرض بعضها فقط لأكثر مـن مـائة متر. ومنذ عام ١٩٧٢م، بلغ عدد الطرق الموصلة بين مكة ومنطقة شـعائر الحـج خمس طرق مزودة بجسور علوية لتسهيل حركة الحجاج وتنقلاتهم.

وعلى هذا، يمكن أن نقول بأن مكة المكرمة ذات موقع هام في غـرب شـبه جزيرة العرب، فهي في ملتقى طرق المواصلات بين الشمال والجنوب، وفي مـنطقة تبلغ المسافة فيها بين شرق الجزيرة وغربها أقلّ قدر لها، مما جعل مـنها مـدخلاً لوسطها، كما أن توافر مصادر المياه هيأ الاستقرار لسكانها منذ آلاف السنين.

٢ ـ موضع مكة:

تتحدّد مواضع المدن الدينية في العالم غالباً بأحداث أو رؤى ومعتقدات، أو بموضع قبر كان يرى الناس في صاحبه الخير والصلاح، أي إن مواضع هذه المدن لا تخضع للمنطق الجغرافي.

ولقد تحدّد موضع مكة حيث الحجر الأسود في بـطن وادي إبـراهـيم الذي ينحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وفي شرق وادي إبراهيم يرتفع جبل

(١) عبدالعزيز كامل (١٩٦٨/٦٧)، جـغرافـية الإسـلام فـي عـصر النـبوة: ١٢٩، مـطبوعات مـعهد الدراسـات الإسلامية، القاهرة.

قعيقعان، وإلى الغرب منه جبل أبي قبيس. ويطلق على الجبلين: «الأخشبان» حيث لا ينمو عليهما من النبت إلا القليل، كما أن سفوحهما جرداء تتناثر فيها المغارات التي تتفاوت عمقاً واتساعاً، ويأوي إليها البدو خلال الشتاء.

وعند حضيض أبي قبيس ترتفع ربوة صغيرة هي الصفاء تقابلها في الجنوب الشرقي ربوة أخرى هي المروة. وفي منتصف الطريق بينهما تهبط الأرض في بطن الوادي.

وإلى جنوب قعيقعان وغرب أبي قبيس يرتفع جبل عمر، وكان اسمه العاقر في الجاهلية. ويطلق على الجزء الشمالي من قعيقعان «جبل الهندي» لسكنى الهنود فيه.

هذه هي الجبال الرئيسية المشرفة على مكة. ولكن إذا رجعنا إلى الخريطة الكنتورية لوجدنا جبالاً أخرى كثيرة أقل حجماً وأهمية، وبعضها أجزاء من الكتل الرئيسية الثلاث أو امتدادات لها. وقد أدى توزيع الكتل الجبلية حول مكة بهذا الشكل إلى تحديد مداخلها تحديداً دقيقاً، قصرها على ثلاثة، هي:

١ ـ المدخل الغربي: بين جبلي قعيقعان وعمر، وهو الموصل إلى جدة، ويعتبر أهم مداخل المدينة.

٢ ـ المدخل الجنوبي: في مسفلة مكة، ويسمى طريق اليمن.

٣ ـ المدخل الشمالي: من المعلاة، ويوصل إلى منى وعرفات والطائف.

وتؤدي هذه المداخل ـ أو الطرق ـ الثلاث إلى بطن مكة، وبينها اتصالات حول جبل قعيقعان. فهناك طريق يتفرع من الطريق الغربي ويتجه شمالاً ماراً بالحجون إلى وادي فاطمة إلى الظهران، حيث يلتقي بطريق آخر يتفرع من الطريق الشمالي ويتصل طريق الحجون بطريق الشمال في معلاة مكة بطريق كدا شمال جبل الهندي.

وتمتدّ مكة المكرمة من الشرق إلى الغرب لمسافة ستة كيلو ونصف

الكيلومتر، ومن الشمال إلى الجنوب لمسافة سبعة كيلو ونصف الكيلومتر، ويبلغ إجمالي مسطح المدينة شاملاً الأراضي المستخدمة للإسكان والخدمات والمرافق العامة والجبال المأهولة بالسكان ـ عام ١٩٧٤ ـ نحو ١٦٥١ هكتاراً.

أما أبعاد المنطقة الحرام فغير محدّدة بمسافة معينة في كل اتجاه، فهي تتخذ شكل المعيّن أو الشكل غير قائم الزوايا الذي يبدأ من مسافة ٤٠ كم من الشميسي ـ على طريق جدة ـ ومسافة ١٩ كم من التناعيم ـ على طريق نجد ـ، ونفس المسافة تقريباً على طريق اليمن. هذا بينما تبدأ المنطقة الحرام في عرفات على بعد نحو ٩ كم فقط في اتجاه الشرق في وادي النعمان، وفي المنطقة الأخيرة يقع مسجد نمرة.

وهكذا يمكن القول بأن مكة المكرمة تقوم في بعض الوديان المحاطة بعددٍ من المرتفعات والتلال التي زحف عليها العمران بدورها في كثير من أجزائها. ويعتبر وادي إبراهيم الذي يضم قلب المدينة، ويحتل وسطه المسجد الحرام (ويضم بدوره الكعبة المشرفة، وبئر زمزم، ومقام إبراهيم، ومنطقة السعي بين الصفا والمروة) أهم الوديان جميعاً، وتبدأ منابعه من جبل النار (١٥٠ متراً فوق سطح البحر) ومجموعة المرتفعات الشمالية الشرقية لمكة بالقرب من جعرانة (٢٠ كم من مكة)، حيث الروافد من الجبال المحيطة كجبل النور (٥٦٠ متراً) وجبل تعبة (٨٧٢ متراً) ما بين منى ومجرى الوادي الرئيسي، هذا بالإضافة إلى روافد أخرى تأتي من الجبال المحيطة بمنطقة المعابدة، مثل جبل المسكين ما بين المعابدة والروضة والملاوي، ويزيد ارتفاعه على ٤٧٠ متراً.

وبمواصلة السير مع وادي إبراهيم نحو المصبّ نجد أنه يسمى بالخريق، وهي منطقة تحيط بها المرتفعات من الشرق والغرب. وتسمى المرتفعات الغربية بالحجون (وإلى جنوبها جبل المدافع). أما الشرقية فأكثر ارتفاعاً وتقطعها الشعاب، مثل شعب عامر الذي يلتقي مع وادي إبراهيم في منطقة الغزة، وشعب

علي الذي يلتقي معه في منطقة سوق الليل. وفي الغزة يقع جبل قعيقعان وجبل النقاء ثم جبل الهندي غرب الشامية، وجبل عمر الذي شقّ عبره طريق ليصل بين منطقتي الشبيكة والحفائر.

وإلى الشرق من الوادي ـ والحرم ـ يقع جبل أبي قبيس الذي يطلّ على شعب علي من الشمال. أما إلى الغرب والجنوب منه فهناك جبل خندمة الذي يفصل بين منطقتي أجياد والعزيزية، وفي الأول تقع جبال السبع بنات والمصافي وريع بخش وسلاسل، ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين ٤٢٠ ـ ٥٩٢ م. وعلى جبال سلاسل تقوم قلعة أثرية قديمة شيّدها الأتراك لتطل على الحرم من ناحيته الجنوبية.

وفي شمال غرب الحرم ـ منطقة حارة الباب ـ تقوم عدة جبال، أهمها جبل الكعبة (٤٦٧ م)، وريع الرسان (٤٥٣ م)، وهما من الجبال المأهولة بالسكان؛ نظراً لقربها من الحرم وقلب المدينة التجاري.

وبعد أن يترك الوادي منطقة الحرم يخترق مسفلة مكة، حيث ينتهي في آخرها. والمسفلة تعتبر أكثر جهات مكة انخفاضاً، ولهذا تكثر فيها الآبار، مما ساعد على كثرة البساتين التي يمتلكها بعض كبار التجار، ويجد فيها سكان مكة متنفساً لهم.

وبالإضافة إلى وادي إبراهيم هناك أودية أخرى عديدة، أهمها وادي العشر الذي تكوّن من تجمّع بعض الروافد المنحدرة من مرتفعات شمال مكة، ويتجه في امتداده صوب الغرب حيث طريق مكة ـ جدة وأحياء الشهداء والزاهر والنزهة. ويغذي وادي العشر أودية فرعية، منها وادي الرحا ووادي الرصيفة ووادي دبرة، ولكن أهمها وادي البحر الذي يسمى بهذا الاسم نظراً لاتساعه وغزارة المياه التي يجلبها، حيث ينبع من مجموعة جبلية يتراوح ارتفاع قممها ما بين ٧٠٠ ـ ٩٦٠ م في شمال الشميسي.

أما وادي الرصيفة، فيمتد من العتيبية إلى جرول فالتنضباوي، حيث يصل إلى شارع منصور ـ أحد شوارع مكة الرئيسية ـ، ثم يلتقي وادي إبراهيم مع نهاية المسفلة في منطقة الرصيفة التي استمدّت اسمها من اسم الوادي، وفي وادي الرصيفة يقع بئر طوى، ويحيط به جبل أبي لهب وجبل ربع الكحل.

ومن جبال مكة ذات الأهمية الخاصة لدى المسلمين جبل النور (٦٣٤ م) في الشمال الغربي، وجبل عرفات، وجبل الرحمة في الشرق (٣٤٠ م)، ثم جبل ثور في الجنوب.

وجبل النور يقع فيه غار حراء، وقد أنشئ في قمته خزان لتجميع مياه الأمطار، ويصل إليه طريق معبّد. أما جبل عرفات فتصعد إليه جموع المسلمين في يومٍ عرف باسمه. وفي جبل ثور يقع غار الهجرة النبوية.

ومعظم جبال منطقة مكة مأهولة بالسكان، وخاصة القريبة من الحرم. أما ما يقع منها في منطقة شعائر الحج في منى وعرفات فتقتصر الحياة فيها على موسم الحج فقط، كما يتردد عليها الزوار في مواسم العمرة.

وكان لموضع مكة في منطقة سهلية منبسطة ـ أو حوض مغلق ـ تحيط به الجبال ذات الشعاب، بحيث تكاد تغلقه من كل الجهات إلا في مخارجه الثلاثة، بالإضافة إلى حرمتها الدينية، أن أصبح المستقرون في هذا المكان أو العابرون له في غنى عن بناء أسوار الحماية، حيث يمكن للقافلة أن تتحصّن في الشعاب بواسطة حراسها.

ومكة في هذا الأمر تنفرد بهذه الخاصية عن كل محطات القوافل ومدن التجارة على طول الطريق بين الشام واليمن، والتي تتخذ من الحصون والأسوار دروعاً واقية من هجمات المغيرين. أما في مكة فليست هناك أسوار حماية.

ومما ساعد هذا الموضع على اكتساب منزلة رفيعة مميزة تفجّر عين زمزم في وسطه، والتي تستمد منها القوافل حاجتها من المياه. والمعروف أنه حيثما وجدت

المياه الدائمة الوفيرة في منطقةٍ صحراوية مثل مكة تحولت إلى مدن تعمل في التجارة وخدمة القوافل، هذا بالإضافة إلى اكتساب مكة حرمةً خاصة نظراً لوجود الكعبة المشرفة بها.

وعلى هذا، لم تكن قريش والقبائل الأخرى التي استقرت بمكة في حاجةٍ إلى تخطيطها على أساس دفاعي كما لم يكن هناك ما يدعو إلى بناء حصون أو أسوار ـ أبواب ـ ضخمة تتحكم في الوافدين إليها أو الصادرين عنها. ومن هنا كان لتخطيط مكة طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الديني المرموق، بالإضافة إلى طبيعة الموضع.

وعند هذا الحد يمكن أن نكوّن تصوراً عريضاً لموقع وموضع مكة، فهي المنطقة التي يتقابل فيها سهل تهامة الساحلي مع مجموعة الجبال والتلال الجرانيتية الظاهرة من مجموعة القاعدة الجيولوجية والتي إليها العمران في كثير من أجزائها. ويفصل بين التلال مجموعة من الأودية، أهمها وادي إبراهيم الذي يضم قلب المدينة التجاري والمنطقة السكنية الرئيسية، وفي مركزها المسجد الحرام.

كما يقع هنا أيضاً المنزل الذي ولد فيه النبي وعيادات الأطباء والمستشفى الرئيسي للمدينة وجبانة المعلاة والبريد والبرق.... وكانت مكة فيما مضى ملتقى القوافل المتجهة إلى الشام واليمن. يفد إليها التجار والحجاج من كل مكان في العالم الإسلامي. وفي الوقت الحاضر تأتي مكة في ملتقى أهم طرق السعودية التي تربط بينها وبين مختلف أنحاء البلاد وخاصة مداخلها الشمالية والجنوبية، حيث تصل جموع كبيرة من الحجاج عن طريق السيارات لأداء فريضة الحج أو العمرة.

مناخ مكة

نظراً لموقع مكة الداخلي في نطاق الإقليم الجاف ـ الصحاري المدارية وشبه المدارية ـ فقد تميزت بالسماء الصافية. وعظم تأثير ضوء الشمس في رفع درجات الحرارة؛ فمتوسط درجة الحرارة السنوي لا يقل عن $27\frac{1}{2}$م. والجدول التالي يبين

درجات الحرارة العظمى والصغرى خلال شهور السنة بمنطقة مكة :

الشهر	متوسط درجة الحرارة العظمى	متوسط درجة الحرارة الصغرى	المتوسط
يناير	٢٩ر٦	١٧ر٢	٢٣ر٤
فبراير	٣٠ر٧	١٨ر٣	٢٤ر١
مارس	٣١ر-	١٩ر١	٢٥ر-
أبريل	٣٣ر٨	٢١ر٣	٢٧ر٥
مايو	٣٤ر٢	٢٣ر٢	٢٨ر٧
يونيو	٣٥ر٨	٢٣ر١	٢٩ر٤
يوليو	٣٧ر٦	٢٤ر٢	٣٠ر٩
أغسطس	٣٦ر٢	٢٥ر٤	٣٠ر٣
سبتمبر	٣٤ر٧	٢٥ر١	٢٩ر٩
أكتوبر	٣٤ر٨	٢٠ر٨	٢٧ر٨
نوفمبر	٣٢ر٢	٢٠ر٧	٢٦ر٤
ديسمبر	٢٩ر٩	١٨ر٧	٢٤ر-
	٣٣ر٤	٢١ر٥	٢٧ر٨

ومن الجدول يتضح أن متوسط الحرارة خلال شهور الصيف (مايو ـ أغسطس) مرتفع، ويصل إلى نحو ٣٠ْ م، ثم يأخذ في الانخفاض حتى يصل في شهور الشتاء إلى ١٢ ٢٤ْم. ويلاحظ أن أكثر شهور السنة حرارةً هو شهر يوليو (٣٠ر٩ْم) وأقلّها حرارةً شهر يناير (٢٣ر٤ْم). ولعل ارتفاع درجة الحرارة في مكة طوال معظم شهور السنة يعود إلى إحاطتها بالجبال التي تمنع عنها المؤثرات البحرية. وكان لذلك أثره على الفروق الحرارية بين الصيف والشتاء، حيث تصل إلى نحو ٦ْم فقط.

ومن دراسة الجدول أيضاً نلاحظ عدم وجود تغيّرات موسمية واضحة في درجات الحرارة، وخاصة درجات الحرارة العظمى، وهذا هو طابع الجهات المدارية الجافة بوجه عام. أما المدى الحراري فهو غير واضح بين الشهور، ولكنه أكثر وضوحاً بين الليل والنهار، حيث يبلغ أكثر من عشر درجات. وسبب ذلك

بطبيعة الحال يعود إلى الجفاف والبعد عن المؤثرات البحرية.

أما من حيث الأمطار على منطقة مكة فإنه على الرغم من قربها من البحر الأحمر والذي لا يبعد عنها أكثر من ٧٣كم، إلّا أنه نظراً للخصائص المناخية التي تميزه، ووجود الجبال كحاجز بينها وبينه، فإن أهميته كمصدر للأمطار محدود للغاية، بينما المصادر الحقيقية تقع فوق البحر المتوسط؛ ولذلك فإن الأمطار هنا تخضع في سقوطها لنظام هذا البحر، إنها تسقط خلال الشتاء. أما الفترة الواقعة بين شهري يونيو وأكتوبر فإنها فترة جافة عديمة الأمطار. والتباين في كمية المطر الساقطة خلال الشهور أكثر وضوحاً كلما قلّت كمية الأمطار السنوية. ويمكن أن نرجع ضآلة الأمطار أيضاً إلى الانخفاض النسبي الذي يميز الجبال المحيطة بالمنطقة، سواء في اتجاه الهضبة الداخلية أو في اتجاه البحر بوجه عام.

ومعظم مياه الأمطار تنصرف عبر الأودية، خاصة وادي إبراهيم، مما ينتج عنه أحياناً بعض السيول المدمرة، آخرها تلك التي حدثت في عام ١٩٧٤ م وشهدها الباحث، وتسبّبت في وقوع خسائر جسيمة في الأرواح والأموال، وتبذل الجهود لمواجهة مثل هذه السيول المفاجئة والمدمرة بإقامة عدد من مصارف الأمطار، خاصة في منطقتي الحرم والمسفلة، أكثر جهات مكة انخفاضاً.

والرياح الشمالية هي الرياح السائدة خاصة في الشتاء سرعتها في هذا الفصل بين ٤٠ ـ ٦٠كم / ساعة، ويزيد من حدة تأثيرها صفاء السماء وقت الهبوب، وكذلك اختلاف اتجاهاتها بصورة فجائية بسبب عامل التضاريس المحلية، مما يسبب أضراراً بالغة للزراعات القليلة بالمنطقة، وبخاصة زراعات الخضر والفاكهة وأشجار النخيل؛ نتيجةً لجفافها وإثارتها للغبار المتراكم فوق التلال المحيطة بالمنطقة.

وفي فصل الصيف، تهبّ على منطقة مكة نوع من الرياح المحلية تعرف برياح السموم، تشبه في خصائصها رياح الخماسين في مصر إلى حد كبير، حيث تؤدي إلى رفع درجة الحرارة بشكل واضح، ولكنها في نفس الوقت تساعد على نضج ثمار النخيل.

مصادر المياه في مكة

وهي من أهم مشكلات مكة باعتبارها مدينة حج في بيئةٍ جافة، ومع ذلك تشهد طوفاناً بشرياً في موسمٍ معين من السنة. ولما كان نمو المدن يتأثر كثيراً بمقدار ما يمكن تدبيره من مياه لاستخدامات السكان المتعددة، والتي تتمثل أساساً في الاستخدامات الشخصية، ثم في النواحي الاقتصادية ـ وأهمها الصناعة ـ فإنه بالنسبة لمكة نجد أن الاستخدامات الأولى تمتص النسبة الكبرى من مواردها المائية، بالإضافة إلى بعض الزراعات الصغيرة، في مدينة لا تضم سوى بعض الصناعات الخفيفة أو اليدوية التي لا تستهلك من الماء إلّا القليل، ثم تأتي بعدها الأغراض الأخرى.

وتواجه مكة المكرمة مشكلة مياه متجددة مرتبطة بنموّها السكني والسكاني، خاصة وأنه قد صاحب ذلك تعدد ونمو في وظائفها، وذلك بسبب اعتمادها القديم والدائم على مجموعةٍ معينة من الآبار، ومن مستوى ماء باطني ثابت قليل العمق غالباً.

وتحصل مكة على المياه من مصدرين :

١ ـ مصادر تملكها الدولة (إدارة عين زبيدة والعزيزية).

٢ ـ مصادر خاصة يتملّكها الأفراد ممثلةً في عدد من الآبار داخل مكة أو بالقرب منها.

ومعظم استهلاك مكة من الماء تحصل عليه من المصادر الأولى (عين زبيدة والعزيزية)، وتسحب المدينة نحو ٦٠٠ر٢١م٣ من المياه يومياً، أو ما يعادل ٨ مليون متر مكعب في السنة حسب البيان التالي :

المصدر	نوعه	متوسط الكمية يومياً بالمتر المكعب	الوادي	ملاحظات
عين زبيدة	نبع	٣٥٠٠	النعمان	تنقل المياه إلى مكة بواسطة قناة من الحجارة مغلفة بالبلاط في بعض أجزائها.
عين العزيزية	نبع	٣٦٠٠	فاطمة	تستهلك الزارعة المحلية كمية مماثلة لاستهلاك المدينة من هذين المصدرين.
عين صلاح	نبع	٢٠٠٠	فاطمة	
عين مودي	نبع	٥٠٠٠	فاطمة	
عين القشاشية	بئر	٦٥٠٠	فاطمة	تعمل عليه مضختان.
بئر العابدية	بئر	٢٠٠٠	النعمان	تعمل عليه مضخة واحدة.

وجميع هذه المصادر تبعد عن مكة مسافة تتراوح بين ٢٢ ـ ٢٨ كم. وباستثناء عين زبيدة التي تنقل مياهها عن طريق قنوات مغطاة أنشأها الأتراك، فإن مياه العيون أو الآبار الأخرى تنقل إلى مكة بواسطة سيارات أعدت لهذا الغرض.

أما مصادر المياه الخاصة، فيبلغ عددها ٢٠٦ آبار، تزوّد المدينة بمصدر إضافي للمياه يعتمد عليه نحو ١٥٪ من سكانها. وبالرغم من عدم معرفة كمية المياه التي تتدفق من هذه الآبار على وجه الدقة ـ لعدم وجود بيانات ـ إلّا أنها لا تقل بحال عن مليونين من الأمتار المكعبة سنوياً. والجدول التالي يوضح مواقع الآبار

الخاصة في مكة :

الموقع	عدد الآبار	الموقع	عدد الآبار
المسفلة...	٣٤	المعابدة...	٢٩
جرول...	٧٣	شارع المنصور...	٢٣
أجياد...	٢٠	النزهة وأم الدرج...	١٥
الشهداء...	١٢	جملة...	٢٠٦

ويستفاد من بيانات مصلحة عين زبيدة والعزيزية والدراسة الميدانية أن متوسط استهلاك الفرد من المياه يومياً يقدر بنحو ٦٨ لتراً، وهو معدل منخفض حتى إذا ما قورن بمعدلات الاستهلاك الفردي في البلدان ذات المستوى الصحي المقبول، وهو لا يقل عن ٩٠ لتراً في اليوم للشرب والطبخ والاستحمام وغسل الأواني وفي دورات المياه.

وهذا الاستهلاك الفردي المنفخض ظاهرة تدعو إلى القلق خاصة من ناحية الصحة العامة في مدينة تشهد تزايداً سكانياً مستمراً وحركة عمران واسعة، كما يفد إليها أعداد هائلة من الحجاج والمعتمرين من مختلف البلاد والجنسيات.

ويتم توزيع المياه على سكان مكة بعدة طرق :

١ ـ التوصيلات المباشرة بواسطة شبكة أنابيب المياه، وهي تزود ما يقرب من ٥٣٪ من السكان بحاجاتهم من المياه.

٢ ـ سيارات نقل الماء (الوايتات)، وتقوم بنقل المياه لنحو ١٥٪ من سكان المدينة.

٣ ـ مراكز التوزيع للجمهور مباشرة أو عن طريق السقايين، ويحصل على المياه بهذه الطريقة باقي السكان (٣٢٪).

ويختلف سعر الماء في مكة حسب طريقة التوزيع :

أ ـ فهو يبلغ نصف ريال / م٣ من الماء الذي ينقل بواسطة شبكة الأنابيب للمشتركين.

ب ثلاثة ريالات / م٣ ينقل عن طريق الوايتات.

جـ ـ خمسة ريالات / م٣ من الماء يتم ضخّه من الآبار الخاصة.

د ـ أما المياه التي توزع من مراكز أو نقاط التوزيع فلا تتقاضى إدارة عين زبيدة ثمناً لها.

وتهدف المشروعات (الجاري تنفيذها حالياً) إلى تعميم نقل المياه عن طريق المواسير، والقضاء على ظاهرة السقايين بوجه خاص، منعاً للتلوث، والحفاظ على الصحة العامة. وقد بدأت شركة متخصصة في مد مواسير المياه إلى المنازل، وإنشاء عدد من الخزانات الضخمة على أطراف المدينة. وبدأت دراسات جادة للوصول إلى مصادر أخرى ثابتة للمياه لسدّ احتياجات المدينة مستقبلاً. ويبدو أن هناك اتجاهاً إلى زيادة طاقة محطة تحلية مياه البحر في جدة لإمداد مكة باحتياجاتها، أو إنشاء محطة أخرى تخصّص لمدينة مكة وحدها، كما تجري دراسة للمياه الجوفية حول مكة.

نمو المدينة وتطورها

مكة المكرمة من أهم مدن السعودية وأقدمها سكناً، وهي ثالثة مدن المملكة من حيث السكان (٣٣٦٨٠١ نسمة حسب تعداد عام ١٩٧٤ م) بعد كل من الرياض وجدّة.

فمنذ أسكن إبراهيم أهله في هذه المنطقة والناس يتوافدون عليها، خاصة بعد بناء الكعبة، وتفجّر بئر زمزم إلى جوارها.

وكان العرب وغيرهم يتوافدون على مكة للحج والتجارة، مما ساعد على زيادة عدد السكان واتساع مساحتها كثيراً تبعاً لذلك، وظهور أحياء عديدة في

مختلف العصور.

وقد عني الجغرافيون العرب بوصف مكة على عهد النبي، فذكروا أن الحرم كان مركز الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، شأنها في ذلك شأن مدن العصور الوسطى التي كانت الكاتدرائية أو الكنيسة في وسطها، وإلى جانبها أسواق المدينة المركزية ومساكن الحرفيين ومحلاتهم[1]. فكان يحيط بالكعبة منازل قريش مقسّمة على أساس النسب، فكان شعب بني هشام مثلاً في شمال شرق الحرم، وبهذا كان أقرب إلى المعلاة، وكانت المساكن تبنى على سفوح المرتفعات المشرفة على الوادي وشعابها.

ويقول القرطبي في كتابه «الإعلام»: «إن مكة كان مبدؤها المعلاة، ومنتهاها من جهة المسفلة لصق مجرى العيون، ونهايتها الشبيكة من جهة جدة، وعرضها وجه جبل يقال له ـ في عهده ـ جبل جزل، وقد سماه الأزرقي الجبل الأحمر» كما ذكر القرطبي بأن مكة لم تكن مسوّرة[2].

وعلى نحو ما ذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك: «يبلغ طول مكة من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، ومن أجياد إلى ظهر قعيقعان نحو ١ ١/٣ ميل، والمسجد الحرام وسط مكة، والكعبة في وسط المسجد، وبهذا فقط أحاطت مكة بالبيت الحرام، وترتفع الجبال على جانبي الوادي وتحيط به بحيث تحدد مداخله، ولذا لا تشاهد أبنية مكة للقادم عليها إلّا وهو على أبوابها».

وقد تركز السكان حول الكعبة، فمعظم من سكن مكة قديماً عاش بالقرب منها حتى يسهل الاتصال بالحجاج أو الوافدين إلى المدينة، وكذلك حتى يكون قريباً من بئر زمزم مصدر المياه الوحيد تقريباً في ذلك الوقت.

ولكن ما لبث أن تضخّم حجم المدينة، وزاد اتساع رقعتها كثيراً، نظراً

---

(١) Feeman, T.W. (1968), (Geography and Planning), London, P.19.

(٢) أحمد السباعي (١٣٨٢هـ)، تاريخ مكّة: ١٠٢، الطبعة الثانية، مكّة.

للزيادة السكانية الهائلة والمستمرة، وكذا لاهتمام الدولة بإعادة تخطيط مكة وشق الطرق الحديثة وخاصة الموصلة منها إلى الحرم أو منطقة مشاعر الحج، وما لبثت أحياء جديدة أن ظهرت في اتجاه كل من جدة والطائف.

والكعبة أول ما شيد في مكة المكرمة، ثم ما لبثت القبائل أن توافدت عليها للإقامة أو التجارة، واتخذت كل منها مكاناً حول الكعبة وبالقرب من بئر زمزم، وعمرت مساحة محدودة من جبل هندي والقشاشية والمسعى وأجياد والسدّ والمصافي حتى المسيال وجزء من المسفلة صغير. أما الأحياء الأخرى البعيدة عن الحرم فقد تأخر تعميرها أو سكناها نظراً لصعوبة شق الطرق إليها لبعدها عن بئر زمزم.

وعندما حاول الناس البناء بجوار الكعبة خط لهم ابن كلاب خطاً حولها عليهم أن يبنوا دونه، وأمر أن تكون هناك طرق بين هذه البيوت تؤدي إلى ساحة الحرم، كما أمرهم كذلك ألا ترتفع مساكنهم عن الكعبة لتظل مشرفة.

وكانت حدود مكة في القرن الثاني الهجري كما يلي:

من جهة الشرق: القشاشية، وشعب علي، وشعب عامر، والمعلاة حتى حدود المعابدة.

ومن الشمال: الشامية والفلق وجبل هندي

وفي الغرب: حارة الباب وجزء ضئيل من المسفلة، وجبل عمر.

وفي الجنوب: حي أجياد بكامله.

ولم يطرأ على هذه الحدود تغيير يذكر في عهد الأمويين أو العباسيين، إلّا أنه في عهد الأمويين شيدت أسوار (أبواب) لمكة في المعلاة والشبيكة والمسفلة.

وفي عهد العثمانيين، لقيت مكة عناية فائقة، فمدّت إليها المياه العذبة من أماكن بعيدة كعين زبيدة مثلاً، وكذلك عني بالمسجد الحرام، وبني بناية إسلامية، وتم تزيينه بالنقوش التي لا تزال ظاهرة حتى اليوم في البناء الداخلي للمسجد.

وفي عهد الأشراف، ظهرت أحياء جديدة في مكة، لعل أهمها جرول والزاهر، وتزايدت مساحة كل من المسفلة والمعابدة.

وفي ظل حكم السعوديين، ساعد اكتشاف البترول في المملكة وتدفقه بكميات ضخمة على ظهور أحياء جديدة أخرى أكثر اتساعاً ورفاهية، وامتدت المدينة على الطرق المؤدية إلى كل من جدة والطائف.

ويقدر أن مكة المكرمة قد تضاعفت مساحتها خلال نصف القرن الأخير، كما تم وضع تخطيط لها أعدّه مكتب تخطيط المدن بالمملكة. وقد اتسعت المدينة بذلك إلى مشارف منى، وضمت منطقة الحوض (العزيزية) والعدل والخانسة والزهراء....

ويرى الباحث أن نمو المدينة خلال الفترة الأخيرة وخاصة منذ بداية الخمسينات من القرن الحالي وتطور العمران بها يعود إلى الأسباب الآتية:

١ ـ العامل الاقتصادي

٢ ـ العامل الديني والثقافي

٣ ـ توافر الأمن والاستقرار بالمملكة.

أولاً: العامل الاقتصادي

كانت على طريق التجارة بين الشام واليمن[١] مدينة مكة المكرمة منذ بداية تعميرها محطة، وقد استدعى ذلك ضرورة توفير الأماكن المناسبة لسكنى التجار وإقامتهم، وعلى هذا فقد نشطت حركة العمران بالمدينة منذ نشأتها.

وفي الوقت الحاضر ازدحمت مكة المكرمة بمئات المحال التجارية وتوكيلات الشركات العالمية وفروع البنوك المختلفة، هذا بالإضافة إلى قيام بعض الصناعات

(١) نعيم زكي فهمي، (١٩٧٣)، طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق والغرب: ١١٥ ـ ١٨٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

الخفيفة التي تخدم الوظيفة الدينية للمدينة. كما أدى ارتفاع دخل الفرد في المملكة، وزيادة قدرته الشرائية وإقباله الشديد على استخدام كل أجهزة العصر التي توفر له الرفاهية والتقدم، إلى اتساع رقعة المدينة واتجاه السكان إلى البناء خارجها. ويتخذ نمط التخطيط في الضواحي الجديدة شكل الفيلات التي تحيط بها الحدائق الواسعة.

ثانياً: العامل الديني والثقافي

ويعتبر من أهم عوامل نمو المدينة وتطورها، وذلك نظراً للزيادة المضطردة في أعداد حجاج البيت والمعتمرين إليه كل عام، مما استلزم ضرورة إقامة الفنادق والمساكن لإيوائهم، وشق الطرق المرصوفة والواسعة إلى منطقة الحج في منى أو إلى جبل النور وغيره من المعالم الإسلامية بمكة.

وفي سبيل تحقيق ذلك، قامت الحكومة السعودية بنزع ملكية مساحات هائلة من الأراضي، وهدم آلاف المساكن التي كانت تعيق التخطيط الحديث للمدينة، وتعويض أصحابها عنها بمبالغ ضخمة حتى يمكنهم إنشاء مساكن أخرى في مناطق التعمير الجديدة على أطراف المدينة، والتي زوّدتها الحكومة بمختلف الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، وشقت إليها الطرق المرصوفة.

ولما كان موسم الحج يعتبر من مصادر الدخل الهامة لسكان المدينة فقد اهتم المطوفون والتجار بصفة خاصة بإنشاء عمارات حديثة خصّصت لسكنى الحجاج خلال موسم الحج فقط، بينما تظل شبه مغلقة بقية شهور السنة. وفي هذا نلاحظ الارتباط الوثيق بين الدين والأعمال التجارية، وهو يشبه ما حدث في أوائل العصور الوسطى في أوروبا عندما كانت الهيئات التجارية تحاكي المنظمات الدينية في تنظيم قواعدها التجارية، والتي كانت قائمةً على أسس ديرية، وكانت تقتضي ذات الانقطاع الشديد ولكن ابتغاء للربح المادي، وكان من المهام الرئيسية لفرسان المعبد (knights temple) أن يؤدوا عمل وكلاء النقل ورجال المصارف.

أما عن أثر العامل الثقافي في نمو المدينة، فلقد كان للنهضة التعليمية التي شملت المملكة، والاهتمام المتزايد بإنشاء المدارس والجامعات، أثره الكبير في اتساع رقعة مكة، لما استلزمه ذلك من إقامة مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية، ثم إنشاء جامعة الملك عبدالعزيز (كليتي التربية والشريعة) في منطقة الحوض، وتخصيص مساحات كبيرة لمنشآتها المختلفة، وكذلك إنشاء معهد المعلّمين بالقرب من الجامعة. وقد تبع ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إقامة مساكن للطلبة، مما كان له أثره في ازدهار المدينة عامةً، ومنطقتي الحوض والعزيزية خاصة.

ثالثاً: توافر الأمن والاستقرار

ولا شك أن هذا العامل له أثر كبير في نمو مدينة مكة وتطوّر العمران بها، وخاصة منذ ولي السعوديون حكم البلاد، فلم تكن سيطرة السابقين لهم لتمتد إلّا على مساحات قليلة حول مراكز الاستقرار في البلاد؛ ولذلك فقد اتجه السكان ـ بعد أن اطمئنوا إلى حكامهم وعلى أموالهم ـ إلى التوسع في البناء على أطراف المدينة وعلى طول الطرق المؤدية إليها، وكان للحكومة جهد وافر في هذا المضمار

بمساهمتها في توفير المساكن لغير القادرين أو إنشاء مساكن للذين أزيلت مساكنهم لشق الطرق الجديدة وإتمام مشاريع توسعة الحرم الشريف.

ومن خريطة اتجاهات النمو العمراني للمدينة نستطيع أن نلمح تأثير المظاهر الطبوغرافية المحلية على شخصيتها؛ فقد اتخذت رقعة البناء الأساسية من الوديان والشعاب مستقراً لها؛ نظراً لسهولة البناء وشق طرق المواصلات، وكذلك للقرب من مصدر المياه الرئيسي (بئر زمزم) في وادي إبراهيم، ثم اتجه البناء بعد ذلك إلى التلال المحيطة بالحرم طلباً للحرارة المعتدلة والأمن، بالإضافة إلى القرب من الحرم ـ مصدر الرزق لمعظم سكان المدينة ـ وفي الفترة الأخيرة اتجه التعمير نحو الأراضي السهلية في أم الدود والحوض بسبب توافر أجهزة التكييف وانخفاض أسعار الكهرباء واستقرار الأمن؛ وهكذا نزلت المدينة هابطة من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة، أو من المناطق التلية إلى المناطق السهلية.

اتجاهات النمو

تتجه مكة المكرمة في توسّعها العمراني على محورين رئيسيين:

الأوّل: ويتبع الطريق إلى مدينة جدة، حيث ظهرت عدة أحياء جديدة، أهمها الزاهر والزهراء والنزهة، وتشكل مساحات هذه الأحياء حالياً نحو ثلث مساحة مكة بأكملها، رغم أنه لم يبدأ تعميرها إلّا منذ منتصف القرن الحالي تقريباً.

الثاني: ويتبع الطريق إلى الطائف ممثلاً في أحياء الششة والعزيزية والفيصلية. وتشكل هذه الأحياء أيضاً مساحة كبيرة من المدينة.

ومن أسباب اتجاه نموّ المدينة على المحور الأول أنه المدخل الرئيسي لها من ناحية القرب، حيث ميناء مكة الهام ـ جدة ـ على البحر الأحمر، والذي يصل عن طريقه حجاج البحر الذين يمثلون غالبية الحجاج، كذلك فإن ميناء جدة من أهم موانئ المملكة، وتصل عن طريقه معظم البضائع الواردة إليها. وجدة أيضاً متنفس طبيعي لسكان مكة، وإليها يتجهون في أسفارهم إلى خارج المملكة، وكذلك

لزيارة الأطباء وقضاء كثير من متطلباتهم.

وكان من أسباب اتجاه نمو المدينة على هذا المحور أيضاً توافر مياه الآبار والعيون بالمنطقة، وخصوبة التربة في الوديان والشعاب الموجودة بها.

أما اتجاه نمو مكة على المحور الثاني فهو على الطريق إلى منطقة شعائر الحج، بالإضافة إلى استواء السطح بها... ووجود بعض المزارع والبساتين بالمنطقة، كذلك فإن اختيار موقع كليّتي التربية والشريعة ثم معهد المعلّمين في هذه المنطقة كان له أثر كبير في جذب العمران إليها، وما تبع ذلك من تعبيدٍ للطريق أو إنشاء خدمات، ثم تواتر أصحاب المحال التجارية إليها وإنشاء بعض المستشفيات بالمنطقة ومصنع للثلج وكثير من المقاهي والمتنزهات. هذا بالإضافة إلى أن مدينة الطائف هي مصيف لسكان مكة وللحكومة كذلك، مما زاد في أهمية الطريق إليها، وبالتالي شهد حركةً عمرانية واسعة خاصة في السنوات الأخيرة، حيث تمثل حالياً ما يقرب من ثلث مساحة مكة بأكملها.

وهكذا، فإننا نستطيع القول بأن أكثر من نصف مساحة المدينة هي بنت نصف القرن الأخير من نموها.

مورفولوجية مكة

ظهرت مكة المكرمة مع بناء البيت، وارتبط تاريخها بتاريخه، كما أن تخطيط المدينة منذ إنشائها له طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الديني المرموق لأهل الحرم في شبه الجزيرة.

ولا شك أن البيت الذي تجسدت فيه الوظيفة الدينية للمدينة كان بمثابة النواة التي تضبط اتجاهات نمو المدينة وامتدادات شوارعها، ويظهر أثرها واضحاً في تركيب المدينة خلال مراحل تطورها المختلفة.

وليس هناك أي موضع يمكن أن ينافس هذه النواة من حيث قوة جاذبيتها وسيطرتها على أي تخطيط يمكن أن يوضع للمدينة حالياً أو مستقبلاً.

وتتمثل أهمية ملامح تركيب مكة فيما يلي:

١ ـ الكتلة السكنية للمدينة: تبدو مندمجة أقرب إلى الشكل الدائري الذي يتوسّطه الحرم، تفصل بينها الحارات الضيقة والأزقة المتعرجة، ولا تترك بينها وبين الحرم سوى رقعة صغيرة من الأرض تعرف حالياً بالمكاف. وقد حرص الناس فيما مضى على أن تكون أبنيتهم في شكلٍ دائري حتى لا تشبه بناء الكعبة المربعة، وأن تكون تلك الأبنية أقل ارتفاعاً من الكعبة، فكانت المنازل بمثابة السور الذي يحيط بالبيت.

ولم يكن للحارات من وظيفة سوى تيسير حركة المشاة، والوصل بين أحياء المدينة التي كان يمثل كل منها قسماً مستقلاً تقريباً، شأنه شأن المدينة ككل. ولما كانت صلتها بالخارج قد تحددت مع وظيفتها الدينية وتداعياتها، فقد كانت الرغبة في إبراز أهمية قلبها الديني وراء تركيبها العمراني حيث يظهر المسجد الحرام محاطاً بسلسلة من الحلقات غير المنتظمة التي تكتنف القلب وتحميه، على حيث تجعل الوصول إليه أقرب منالاً عن طريق حارات ملتوية، وتشكل محيطها مع بروزات موضعها ـ وإن اتخذ عامة ـ شكلاً مستديراً شأن مدينة العصور الوسطى عامة[١].

والمنازل تصطفّ بحيث تؤلف إطاراً لوحدة سكنية مغلقة لا تعلو عن طابقين أو ثلاثة غالباً، تستمد بنائها من التربة والصخور المحلية، فهي من الأحجار المسقوفة بجذوع النخيل، تتوزع داخلها الأسواق، متخذةً أشكالها القديمة ذاتها، ومتبعةً نمط معاملاتها الموروثة.

٢ ـ في مكة أسواق عديدة، منها اثنتان للحيوان ـ إبل وماعز وضأن ـ في المعابدة وجرول، واثنتان للخضر والفاكهة في النقا وجرول. أما أسواق الأقمشة

(١) Robert, E. Dickinson (1965), "The Growth of the Historic city", in "Readings in Urban Geography", Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. kohn, The Univ. of Chicago Press, PP. 69-84.

والملبوسات والأدوات الكهربائية ففي المنطقة المحيطة بالحرم مباشرة في أحياء النقا والقرارة والغزة وأجياد. وأسواق الحيوان أقدمها، وكانت فيما مضى خارج المدينة قبل زحف العمران إلى المناطق الجديدة، ويباع فيها أيضاً ما يجلب إلى مكة من منتجات البادية من صوف ووبر.

٣ ـ جبانة المعلاة ـ مقبرة مكة الوحيدة ـ تنقسم إلى قسمين، بينهما شارع رئيسي، وكل من القسمين مسوّر، وفي القسم الأقرب إلى الحرم مظلة للعزاء وإدارة لخدمة الموتى.

٤ ـ الجزء القديم من المدينة يتميز بعدم الانتظام، وفوق كل هذا ليس هناك تنسيق أو تخطيط معين للطرق أو المباني التي احتشدت معاً في فوضى واختلطت بغير انتظام، وأصبحت الفراغات بينها أزقة المشاة والعربات، وارتفعت كثافة السكان.

وهناك إحساس باستمرار الازدحام والاضطراب[1]، كما لم تكن هناك حاجة إلى مراعاة مطالب مد أنابيب المياه أو المجاري أو الكهرباء. وكان من مظاهر الاتساق مع خصائص الموضع مراعاة خطوط الكنتورية بدلاً من محاولة تهذيبها، أي كأن هناك نوعاً من التخطيط العضوي وهو ذلك التخطيط الذي لا يبدأ باستهداف غرض محدد سلفاً، بل ينتقل من حاجة إلى حاجة ومن فرصة إلى فرصة في سلسلة متصلة من الملاءمة مع ظروف الموضع.

لقد كانت «وحدة الجوار» السمة الرئيسية في تركيب المدينة الداخلي، وظلت الكعبة قلبها الخافق، بينما انقسمت كتلتها إلى أحياء شبه مكتفية بذاتها، وانقسمت الأحياء إلى أحواش. وكان بالمدينة عدد من المدارس وعدد أكبر من مكاتب الصبيان ومكاتب القراءة، بالإضافة إلى عدة مكاتب لتعليم البنات. أما الأربطة والزوايا فكثيرة، وظلت بعض المكتبات عامرةً، ومن أشهرها مكتبة الحرم.

---

(١) Lowry, J.H., (1975), "World City Growth", London, PP. 24-26.

٥ ـ يتضح من شكل الشوارع في الأحياء القديمة أن وظيفة الشارع فيما مضى تختلف عنها في عصرنا الحالي، فكانت دروب السير على الأقدام في الداخل هي التي يسلكها السكان يومياً، ولذا فلم تكن هناك ما يمكن تسميته «شبكة طرق لحركة المرور»؛ لعدم وجود حركة مرور دائبة من ناحية، ولأن الشارع كان ضيقاً تلبية لوظيفة محددة، وهي تنقلات السائرين على أقدامهم من ناحية أخرى، ولم تكن الشوارع ضيقة وفي حالات كثيرة غير منتظمة فحسب، بل كانت تكثر بها المنحنيات الحادة والسدات، وكان من شأن ذلك أن يحدّ من قوة الريح، ويقل شدة التعرض لخطر الغرق بالفيضان[١].

لقد كنت الكتلة السكنية المتجمعة ـ بما فيها من مساكن وحوانيت ومبان للحرفيين ـ هي التي تحدد امتدادات الشوارع، وكان من شأن اتجاه المساكن نحو الالتفاف حول النواة، أن يعيق ظهور ونمو نسق الوحدات السكنية، وكانت الجبال هي الحد الذي يحدد في الأصل التكوين المادي للمدينة.

٦ ـ يتميز التركيب الحالي لمدينة مكة المكرمة بأنه أكثر تعقيداً وأقل ثباتاً مما كانت عليه في الماضي القريب، وذلك نتيجةً لمجموعة من العوامل سبق الإشارة إليها من قبل.

وقد حققت هذه العوامل نجاحاً ملحوظاً في توظيف اليد العاملة في نواحي نشاط أكثر تنوعاً، كما ساهمت وسائل المواصلات الحديثة في عملية نقل حضاري عميقة الأثر، كما ساعد تكوين المدينة القابل للامتداد على اتساع مساحتها كثيراً، بحيث تستطيع تلبية واستيعاب الحاجات المتغيرة. وكان من جراء نشوء وظائف اقتصادية ومهام اجتماعية جديدة ظهور التخصص بدرجة أوضح في وظائف مبانيها، كما أنها قد أدخلت على هذه المباني من ضروب التميز ما أكسبها ـ معمارياً ـ أشكالاً تعبر عن تباينها ومرحلة نموها.

---

(١) جمال حمدان، (بدون تاريخ)، أنماط من البيئات: ٨٨، القاهرة.

لقد امتدت كتلة المدينة السكنية مع محاور مواصلاتها إلى جـدّة والطـائف، وأصبحت هذه المحاور بمثابة إطار يحدد اتجاهات نموها وشكلها المورفولوجي في المستقبل.

٧ ـ **مع نموّ المدينة المتزايد والمستمر**، نجد أنها قد انـقسمت إلى مـناطق سكنية تحيط بالحرم، وممتدة في الفترة الأخيرة مع شوارعها الجديدة، ونامية بمعدل سريع نحو المواضع الفسيحة على الطرق المؤدية إلى الطائف أو جدة. وتظهر المنطقة التجارية مرتبطة بوسط المدينة، وهي المنطقة المحيطة بالحرم، مع امـتدادات أقـلّ كثافةً على طول الشوارع الحديثة، وهو ما يؤكد وظيفة القـلب في هـذه المـدينة المقدسة، باعتباره يمثل النبض اليومي لجملة وظائفها، كما تظلّ المقبرة التاريخية في موقعها إلى الشمال من الحرم، وتبدو بقية وظائف المدينة الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والفعلية موزعة على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طـول محـاور نموها الرئيسية.

٨ ـ **رغم مظاهر النموّ** الحديثة في تركيب مكة ووظائفها، إلّا أنها مـا تـزال لم تتجاوز كثيراً خصائص موضعها الطبيعية، كما أنها مـا تـزال أقـرب للانـدماج بنواتها، ويظهر وادي إبـراهـيم كـخط طـبيعي يحـدّد مـوضعها، كـما أن الجـبال المحيطة تمثل حدودها. ويظهر التداخل بين مورفولوجية المدينة وطبوغرافيتها في تلك الامتدادات السكنية فوق التلال المتداخـلة في مـنطقة مكـة كـرؤوس مـن جبالها.

والواقع أن أهم مظاهر التغير الحديثة في مكة المكرمة قد بدت في اتجاهين: يتصل الأول بالتركيب، والثاني بالوظائف[1]. وقد بدأت هـذه التـغيرات تخـضع

---

١ ـ Chauncy, D. Harris And Wdward, E. Ullman, (1965), (The Nature of Cities), in (Reading in Urban Geography) Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. kohn The Univ. of Chicago Press Chicago, pp. 227/298

حديثاً لنوع من التخطيط لم تتضح أبعاده النهائية بعد.

٩ ـ يلاحظ أن جوهر التغيرات في تركيب المدينة المعاصر هو اتجاهها لكي تتحول إلى مدينة الشوارع التجارية، مع التمسك بالقلب الديني الذي ضبط نموّها في الماضي والحاضر من ناحية، وشبكة الشوارع التجارية العريضة من ناحية ثانية. وهناك من الدلائل التي ترجّح هذا التصور أهمها ما يتصل بعملية خلخلة المنطقة الوسطى، وخطة إنشاء شبكة الشوارع التجارية العريضة. كما تشمل أيضاً المرافق العامة وتجميل المدينة.

أ ـ خلخلة المنطقة الوسطى: وهي المنطقة التي تضم ما تبقى من المدينة القديمة وبؤرة التجارة المركزية وأحياء السكن الداخلية حول الحرم، ولقد أزيلت الكثير من معالم مكة القديمة، كما أضيفت أجزاء منها إلى المسجد، ودخلت في مساحاته خاصة بعد التوسعة السعودية الأخيرة، وأجزاء أخرى استخدمت في شق شوارع جديدة أو في توسيع أخرى قائمة.

ولما كانت المنطقة الوسطى تضم نسبةً كبيرة من خدمات المدينة، وأكثر من ثلث سكانها، وعدداً كبيراً من المساجد الأثرية والمباني القديمة، فإن الاتجاه إلى إزالتها قد يؤدي إلى الإخلال بالتوازن المورفولوجي في تكوين المدينة، والقائم على أساس التفاف مباني المدينة حول الحرم.

لقد تجلّت محاولات خلخلة المنطقة الوسطى في تهيئة مجموعة من أهم الشوارع، تنتهي جميعاً إلى الحرم، ونقل معظم مراكز الخدمات الموجودة بها إلى هوامشها.

ب ـ تجنح التصميمات الحديثة للميادين والشوارع نحو الاتساع والانبساط متميزةً بالمساحات المفتوحة والميادين المستديرة، وما يتفرع منها من شوارع وطرق عريضة، تشق اتجاهاتها وسط تراكمات سكنية قديمة.

جـ ـ اتجه التخطيط الجديد لمكة إلى إحاطتها بالطرق العريضة المرصوفة

Roads Ring، وهذه قد حددت شكلها مورفولوجياً، وأصبحت بمثابة محاور للنمو العمراني حالياً وفي المستقبل، وهي تصب غالباً في الطرق الخارجية التي تربطها بأنحاء الدولة.

د ـ لقد صحب امتداد المدينة الأفقي ارتفاع واضح في مسقطها الرأسي، وظهرت الأحياء الجديدة كإطارات تحيط بنواة وأجزاء مهدّمة واطئة. وعدد طوابق المنازل لا يتجاوز أربع طوابق في المنطقة الوسطى، ويتجه إلى التزايد ليصل إلى ما بين ٦ ـ ٨ طوابق على طول محاور السكن والطرق الحديثة، ثم يهبط إلى ما بين دور ودورين في هوامش المدينة. وهناك مجموعة من العوامل تراعى في هذا المجال، منها الضوابط الخاصة بوصول المياه إلى الأدوار العليا، وكذلك وظائف المباني وتوزيع مواقف السيارات في المنطقة المحيطة بالحرم. ولكن مما لا شك فيه أن ارتفاع المباني سيكون ضرورياً خاصة بالنسبة لمواجهة تزايد عدد زوار المدينة الذي وصل متوسّطه في السنين الأخيرة إلى نحو مليون زائر.

هذا، ويستخدم في البناء الأحجار التي يمكن الحصول عليها من المرتفعات المحيطة بمكة، وكذلك الرمال والزلط من الجهات المحيطة بها. وبدأ منذ سنوات قليلة استخدام المساكن سابقة التجهيز في البناء، مما يوفر جهداً ووقتاً كبيراً، كما أنها اقتصادية في استخدام الأيدي العاملة عن الطريقة التقليدية في البناء.

١٠ ـ **لعلّ الشكل الحاضر لشبكة الطرق والشوارع في مكة** هو أبرز ما طرأ على تكوينها القديم من مظاهر التحديث والتخطيط، لقد أنشئت طرق تصل بين معظم مناطقها السكنية، ومدّت الشوارع التي تفتت القلب المندمج، وتمنحه شرايين أفضل، وهيئت الميادين، ومهدت الأزقة وعبّدت، وامتدت ضمن خطة مسبقة لتصل إلى أحياء السكن الحديثة، ولم تكن هذه التغيرات وغيرها مما هو مكمل لها إلّا انعكاساً لتغير وظائف الطرق والشوارع، وتعبيراً عن دخول المدينة ككل

مرحلة جديدة من حياتها.

ويعدّ الشارع العريض من أهم رموز المدينة التجارية[1]، ويمثل الحقيقة الرئيسية فيها، وليس من الميسور دائماً وضع تصميم للمدينة طبقاً لطراز معين، بيد أنه مع تخطيط بضعة شوارع جديدة عريضة كان يتسنى ـ عامة ـ إعادة تحديد طابع المدينة، لقد أتيح في التخطيط الجديد استخدام الخطوط المستقيمة، ووحدات للمباني ذات مسقط رأسي مرتفع، منتظمة الشكل متماثلة المساحة عموماً، إلا حينما كان انحراف اتجاه الشوارع سبباً في جعل أشكال الوحدات متعدّدة الأضلاع والزوايا، لقد أصبحت الشوارع العريضة تمثل الإطار الأفقي للمباني الرئيسية التي تحدّد معالم مكة، وضحّي بالكثير من خصائص المدينة القديمة من أجل أغراض حركة المرور والتجارة، وأصبح الشارع هو وحدة التخطيط وليست منطقة الجوار أو الحيّ، ووسعت وشقت عدة شوارع. وقد تم الانتهاء من توسعة الحرم، وذلك بإزالة جميع المباني التي كانت تتصل بالمسجد أو قريبة منه.

المرافق العامة:

وتعد المرافق العامة من أهم مظاهر التغير في التركيب المعاصر للمدينة، فهي تحظى باهتمام كبير، يتمثل في اعتمادات مالية ضخمة بهدف متابعة معدلات نمو عمران المدينة من ناحية، وتحقيق مستوى عال من أداء هذه المرافق من ناحية ثانية. ورغم ذلك فهي عامة تواجه عدداً من المشكلات، ويشمل مصطلح المرافق العامة: «المياه والمجاري، وتصريف مياه السيول، والكهرباء».

وقد سبق دراسة موضوع المياه عند دراسة موضع مكة، ولذلك سنركز هنا على دراسة المرفقين الآخرين:

---

١ ـ Berry, B. J. L. (1963), (Commercial Structure and Commercial Blight), Chicago, p. 37.

أ ـ المجاري وتصريف مياه السيول :

قطع تنفيذ شبكة المجاري المدنية في مكة شوطاً كبيراً، ويسير العمل نحو إنجاز الخطوط الفرعية والتوصيلات المنزلية.

وليس من شك في أهمية مشروع المجاري الحديثة بالنسبة لرفع المستوى الصحي وحماية المباني والمنشآت العامة والمحافظة على سلامة أساساتها فضلاً عن المظهر الحضاري للمدينة.

وبالنسبة لتصريف مياه السيول فهي تشبه تماماً عملية تصريف المجاري إلّا أنها لا تحتاج إلى عملية تنقية، بل تجمع في أنابيب تسير فيها المياه بالاعذار الطبيعي إلى خارج مكة، أو تحويل مجاري السيول إلى مناطق بعيدة عنها. ويدخل ذلك أيضاً ضمن مشروعات المحافظة على الصحة العامة، حيث إن عدم تصريف السيول يجعلها تتجمع في الأجزاء الوطيئة مسببة وجود مستنقعات تصبح مباءات لتوالد البعوض، فضلاً عن إعاقتها للمرور والمواصلات، حيث يتسبب عنها تكاثر الأوحال، خصوصاً في الطرق الترابية والمنافذ الضيقة فضلاً عما تسببه من أضرار لأساسات المباني.

ب ـ الكهرباء :

تتركز مسؤولية توزيع القوة الكهربائية في مكة في الشركة السعودية الوطنية للقوى الكهربائية، وهي شركة خاصة (الجفالي)، تأسست عام ١٣٧١ هـ.

وتأتي القوة الكهربية من محطة واحدة على طريق التناعيم خارج حدود منطقة الحرم، ويتم تزويد منى من هذه المحطة أيضاً، والتي تبلغ طاقتها الإنتاجية ٣٩ مليون واط، وتعمل المحطة على الديزل. ويستفاد من الإحصاءات أن :

٧٢٪ من مساكن مكة ومرافقها المختلفة تحصل على الكهرباء من الشركة مباشرة بواسطة عدادات المشتركين.

١٪ من المساكن تحصل على الكهرباء من أجهزة خاصة لتوليد الكهرباء،

ومعظمها يقع في أطراف المدينة.

٣٧٪ من المساكن لا تحصل على الطاقة الكهربائية، وتتركز بصفة خاصة في ضواحي مكة والجبال المحيطة بها.

أسعار الأرض في مكة

لما كانت مكة في منطقة جبلية تخترقها عدة أودية ضيقة، فقد كان لهذا تأثيره الكبير على أسعار الأرض بها، فالطلب على الأرض يزداد باستمرار نظراً لنمو المدينة من جهة، وازدياد أعداد السكان من جهة أخرى عاماً بعد عام، سواء المقيمون بها أو الوافدون إليها في موسم الحج. وهذا يتطلب مزيداً من الأراضي ـ المحدودة أصلاً ـ سواء بالتوسع الأفقي أو الرأسي.

ومن دراسة ميدانية قام بها الباحث تبين أن هناك عدة عوامل تتحكم في تباين واختلاف أسعار الأراضي في مكة المكرمة هي:

١ ـ **البعد عن الحرم**: يتناسب سعر الأرض تناسباً طردياً مع زيادة القرب من الحرم، فالمعلوم أن مكة قامت أصلاً لتكون مدينةً دينية حول المسجد الحرام، لذلك فإن السكان وكذلك الحجاج الذين يقدمون إلى مكة يختارون أقرب منطقة من الحرم، مما أدى إلى رفع أسعار الأراضي في المناطق المحيطة به. لذلك نجدها تمثل رأس القائمة في سعر الأرض في مكة، حيث يتراوح المتر المربع ما بين ٨ ـ ١٢ ألف ريال. وهذه أسعار مرتفعة جداً ليس لها مثيل في أي منطقة أخرى. ولا عزاء إذا ما ارتفعت الأسعار إلى أكثر من هذا.

٢ ـ **الأسواق التجارية**: وهو عامل مكمل أحياناً للعامل الأول، حيث تتركز معظم الأسواق التجارية في مكة حول الحرم، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأرض للفرص الكبيرة في بناء محلات تجارية عليها وتأجيرها، كما هو الحال في منطقة الغزة حيث يتراوح سعر المتر بين ٤ ـ ٦ آلاف ريال. إلى جانب وجود بعض الأسواق في أحياء أخرى مثل أجياد والشبيكة والسوق الصغير، مما يضفي عليها

أهمية وإقبالاً يرفع من أسعار الأراضي القائمة عليها أو المحيطة بها.

٣ ـ الموقع والواجهات على الشارع الرئيسي: مما لا شك فيه أن الأراضي التي لها واجهة أو أكثر على شارع رئيسي تكون أسعارها أكبر من تلك التي ليس لها واجهة على الشارع الرئيسي. ويلاحظ ذلك من خريطة أسعار الأرض، حيث نجد أن الأراضي الواقعة على الشارع أعلى في أسعارها بكثير من تلك الأراضي الداخلية.

٤ ـ توفير الخدمات العامة: مثل الكهرباء والماء والمواصلات... ففي أطراف المدينة يتجلى أثر هذا العامل واضحاً، كما أن المواصلات بصفة خاصة لها تأثير بالغ، فالمناطق الجبلية يصل سعر المتر المربع فيها إلى أدنى حد له (من ١٠ ـ ١٠٠ ريال) على الرغم من قربها من الحرم، ولكن صعوبة الوصول إليها، وقلة ورود الماء لها، وصعوبة إقامة المساكن فيها، أدى إلى انخفاض سعرها بهذا الشكل. وهنا يمكن ربط هذا العامل بعامل آخر جديد وهو طبيعة السطح، فالمناطق المستوية أعلى سعراً من المناطق العالية المتضرسة.

وثمة جانب آخر هو أن تحسين الطرق أدى إلى ارتفاعٍ في أسعار الأرض، فشقّ الطرق وتزفيتها وإقامة خزانات المياه يعملان على رفعٍ السعر على جانبي الطريق، وإذا نظرنا إلى خريطة أسعار الأرض في مكة نجدها تتفق إلى حد كبير مع العوامل السابق ذكرها. وتتراوح أسعار الأرض ما بين ١٠ إلى ١٢ ألف ريال للمتر المربع. ويمثل الرقم الأول (١٠ ريالات) المناطق التي تحتل أعالي الجبال البعيدة عن مركز المدينة، بينما يمثل الرقم الثاني المناطق المجاورة للحرم مباشرة، حيث تتوافر العوامل المختلفة من قربٍ للحرم، وقرب للأسواق التجارية، ووجود الشوارع الرئيسية التي تشبه الشرايين الكبيرة التي تسير عليها مواصلات المدينة وتوفر الخدمات العامة الأخرى.

ويمكن التدليل على ذلك من أن سعر المتر في الشامية (أقرب الأحياء إلى الحرم) يصل إلى سبعة آلاف ريال، ولكنه ينخفض في المناطق الداخلية في الفلق والقرارة إلى ثلاثة آلاف ريال. كما أن من عوامل ارتفاع السعر في الشامية وكذلك المناطق الأخرى المحيطة بالحرم تركّز العمائر السكنية الكبيرة التي تستخدم في معظمها لسكنى الحجاج.

كما أنه في كل من الغزة والشبيكة يصل السعر من خمسة إلى ستة آلاف ريال للمتر المربع، ولكنه ينخفض بالبعد عن الحرم.

أما القشاشية وسوق الليل فإن سعر المتر فيهما مرتفع جداً نظراً للقرب الشديد من الحرم، ولوجود الأسواق التجارية بها أو بالقرب منها.

وفي شعب علي يصل سعر المتر في الأجزاء المتاخمة للشارع الرئيسي إلى ٣ آلاف ريال، ولكن السعر ينخفض كلما تراجعنا نحو الداخل، حيث يصل إلى ألف ريال فقط.

أما في حي أجياد جنوب الحرم فترتفع أسعار الأرض (بين ٤ ـ ٦ آلاف ريال)، وهي منطقة واسعة تمتاز بأنها منطقة سكنية إلى جانب أنها منطقة فنادق

ومنطقة تجارية أيضاً.

هذا بالنسبة للمناطق المحيطة بالحرم، أما إذا استعرضنا بقية أحياء مكة فإننا نلحظ تناقصاً مستمراً في سعر المتر، فيما عدا المناطق التي توافرت لها بعض العوامل وأكسبتها أهميةً ما، فارتفعت أسعار الأرض بها.

ففي حي المسفلة يبلغ متوسط سعر المتر ١٥٠٠ ريال، ولكنه في بعض المناطق القريبة من الحرم أو التي تقع على شارعٍ رئيسي يبلغ سعر المتر أكثر من ٣٥٠٠ ريال، بينما قد يقل السعر عن ألف ريال في المناطق الداخلية من الحي أو تلك التي تتميز بوعورتها وعدم توافر الخدمات العامة بها، وفيما يلي متوسط أسعار الأرض في بعض أحياء مكة:

شعب عامر ٢٠٠٠ ريال	الملاوي ١٠٠٠ ريال
الفلق ٢٥٠٠ ريال	الخانسة ٧٠٠ ريال
القرارة ٣٠٠٠ ريال	العدل ٥٠٠ ريال
السليمانية والحلقة القديمة	٢٠٠٠ ريال
الروضة والششة	٤٠٠٠ ريال
الجميزة ١٥٠٠ ريال	الجعفرية ١٥٠٠ ريال

ويعتبر الجزء الأوسط من المعابدة منطقة تجارية وسوقاً رئيسية هامة للأحياء المجاورة مثل الملاوي والخانسة والروضة والعدل، ولذلك فإن سعر المتر بها لا يقل عن ٢٥٠٠ ريال.

أما الروضة والششة فإن ارتفاع سعر المتر يعود إلى أنها من مناطق السكنى المفضلة والحديثة التعمير، والتي يُقبل عليها تجار المدينة وأثرياؤها، بالإضافة إلى قربها من منطقة شعائر الحج، وتفضيل الحجاج الإيرانيين، الإقامة بها، وارتفاع قيمة الإيجارات.

أما الأحياء الواقعة إلى الغرب والشمال الغربي من الحرم، والتي تضم كلاً من الحجون والعتيبية والأبياري وجرول والتيسير والزهراء والنزهة وشارع منصور،

فإننا نلاحظ بصورة واضحة انخفاض قيمة الأرض فيها عن تلك الأحياء الواقعة إلى الشرق أو الشمال الشرقي من مكة، بالرغم من تساوي المسافة عن الحرم، ووجود الأسواق والخدمات بنفس النسبة تقريباً.

ويمكن تعليل ذلك بوقوع الأحياء الأولى قريبةً من المشاعر المقدسة مثل منى والمزدلفة، وذلك بعكس الأحياء الأخرى التي تقع في الجانب الآخر، وعلى كل فإنه في لقاء مع رئيس لجنة التقديرات التابعة لأمانة العاصمة أجاب بأن أعالي مكة خير من أسافلها، حسبما ورد في بعض الأحاديث (على حدّ قوله)، ولذلك فالناس يقتدون بما وصلهم من أحاديث عن الرسول ﷺ.

وفي حي العزيزية، نلاحظ إقبالاً شديداً على البناء وشراء الأراضي، ويرجع ذلك إلى رصف الطرق، ووضع تخطيط جيد للمنطقة، وتوافر الخدمات بها، وخاصة بعد إنشاء خزان للمياه يكفي احتياجات الحي، هذا بالإضافة إلى قيام جامعة الملك عبدالعزيز في المنطقة وكذلك معهد المعلّمين، ووجود بعض المستشفيات الخاصة. ويقدّر سعر المتر حالياً في حي العزيزية بنحو ٣٠٠٠ ريال، ولم يكن يتجاوز ٥٠ ريالاً منذ ست سنوات فقط.

عدد الطوابق: يلاحظ بأن عدد الطوابق ينحدر تدريجياً من قلب المدينة إلى الأطراف، فعدد الطوابق يصل إلى عشرة أدوار أحياناً في وسط المدينة بالقرب من الحرم، حيث الاستخدام الكثيف للأرض وسعرها المرتفع، وينخفض إلى دور أو دورين في الأحياء البعيدة عنه حيث الكثافة السكانية المنخفضة وسعر الأرض القليل نسبياً.

استخدام الأرض في مكة المكرمة

ونعني هنا استخدام الأرض في إقامة المساكن أو مراكز الخدمات العامة (تعليم ـ أمن ـ مواصلات ـ صناعة ـ زراعة ـ محلات تجارية ـ أماكن عبادة...).

ومن دراسة استخدام الأرض في مكة المكرمة يتبين لنا أنه قد طرأ عليها كثير

من التغيرات، خاصة بعد امتداد كتلتها السكنية مع محاور مواصلاتها الحديثة، وتضخم عدد سكانها، وزيادة الاهتمام بالتعليم والمرافق العامة وخدمة زوار البيت الحرام.

وتنقسم مكة المكرمة إلى مناطق سكنية Residential Areas تحيط بنواتها القديمة (الحرم الشريف)، وممتدة مع شوارعها الجديدة المرصوفة نحو أحيائها الحديثة التعمير، وهو ما يؤكد وظيفة القلب في هذه المدينة، باعتباره يمثل النبض اليومي لجملة وظائفها الرئيسية: التجارية، والدينية، والسكنية، وتظلّ مقبرتها التاريخية المعلاة في موقعها إلى الشمال من الحرم... وتبدو بقية وظائفها الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والتعليمية موزعةً على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الحديثة.

وتستوعب المنطقة الوسطى لمكة نحو ثلث سكان المدينة، كما أن مساكنهم والمرافق التابعة لها تحتل نحو ٧٠٪ من المساحة المبنية Builtup Area الحالية. وبالنسبة للسكن فإن نحو ٤٠٪ من جملة وحداته تحتاج لتغييرات أساسية، وهناك فرصة لنقلها إلى المساحات الفضاء في الشرق والشمال والغرب من المنطقة الوسطى وعلى طول امتدادات محاور نمو المدينة.

والمعروف أن الأصل في وظيفة المركز العمراني غالباً هو السكن، ولكن بتطور وسائل الحياة تنقسم هذه الوظيفة الأصلية إلىٰ وظائف أخرى، تتعلق بالتخصص الحرفي مثل التجارة والصناعة والحرف الأخرى، وكذلك بالخدمات الإدارية والتعليمية والثقافية والدينية وغيرها... ومن هنا تقوم مع المساكن محلات لممارسة هذه الوظائف الجديدة التي طرأت على المدينة أو القرية... ومدينة مكة نشأت في موقع ممتاز من الناحية التجارية، كما أنها أيضاً قامت في موقع مقدس وهام... وبعد استقرار الأمن بالبلاد بدأت مساكن المدينة تنساح في مناطق جديدة، مما أدى إلى اتساع رقعتها كثيراً، وانتشرت الخدمات والأسواق

والمساجد وغيرها في هذه الجهات. يضاف إلى ذلك أن أجهزة التخطيط بدأت تشق الشوارع في المباني المتوسطة والقديمة باتساع واضح، وبدأت تضع مخططاً جديداً أيضاً يتلاءم مع تطورات المستقبل. ومعنى ذلك أن الأحياء القديمة المحيطة بالحرم بدأت تحدث فيها عمليات تغير واضحة من شق شوارع جديدة واسعة إلى إقامة محلات جديدة وغير ذلك.

ويمكن أن نصف استخدام الأرض في مكة كما يلي:

أولاً: المساكن: وتؤلف القسم الأعظم من المدينة القديمة وجزءاً كبيراً من المدينة الحديثة، وهناك توسّع في الوقت الحالي في عمليات البناء في الشرق والغرب والشمال نتيجةً للظروف الطبيعية والتجارية التي أشرنا إليها فيما سبق. ولكن يلاحظ أن المباني الحديثة تسير وفق مخطط عمران وسعته البلدية، وتسير على هداه الأجهزة المختصة وكذلك الأهالي، والمساكن إما أن تكون طينية قديمة أو مسلحاً وهي ملك لأصحابها، وحوالي ٥٪ منها بالإيجار نتيجةً لتزايد عدد العاملين في الدوائر الحكومية والقادمين من خارج مكة.

ثانياً: أماكن التجارة: وتتركز في المنطقة الوسطى القريبة من الحرم، أي في المنطقة التي تصل بين المباني القديمة (النواة) وبين المباني المتوسطة، وتتركز في شارع الغزة أساساً.

وتشمل التجارة هنا محلات الأجهزة الكهربائية والملبوسات والبقالة والسجاجيد وغيرها، كذلك يوجد أسواق للحيوانات والدواجن ومحلات بيع اللحوم في وسط المدينة. ولا يقتصر وجود المحلات التجارية على هذه المنطقة، وإنما توجد مبعثرةً في أماكن أخرى كذلك، ولكنها تتركز في هذه المنطقة الوسطى من المدينة.

ثالثاً: مناطق الصناعة: ويطلق عليها المنطقة الصناعية، ولكنها ليست صناعية بالمعنى المعروف، إذ إنها لا تعدو أن تكون مجموعة من الورش لتصليح

السيارات وعمليات اللحام، كذلك توجد بعض محلات النجارة، وتقع هذه في الجهة الغربية من مكة.

رابعاً: المباني الإدارية: وتنتشر في مختلف أنحاء المدينة، ولكنها تتركز في المباني المتوسطة. كما أن هناك بعض الإدارات (مثل إدارة تعليم البنات) التي توجد في الأحياء الجديدة، يضاف إلى ذلك أن الكثير من قطع الأراضي في المناطق الجديدة قد حجزت للأغراض الإدارية، ومن الملاحظ أن مكة المكرمة ـ باعتبارها عاصمة للأمارة ـ يوجد بها فروع لكافة الدوائر الحكومية فيما عدا وزارة الخارجية.

خامساً: المباني التعليمية: يوجد في مكة مدارس عديدة، تشمل كافة مستويات التعليم العام الابتدائي والمتوسط والثانوي، ويلتحق بها البنون والبنات، وكذلك يوجد بها كليتا التربية والشريعة التابعتان لجامعة الملك عبدالعزيز، ولكل منها قسم للبنات.

سادساً: المباني الخاصة بالخدمة الصحية: يوجد بمكة مستشفيان رئيسيان وثلاث مستوصفات ومنطقة تشرف على الشؤون الصحية بالأمارة. وأهم المستشفيات مستشفى أجياد بالقرب من الحرم، هذا بالإضافة إلى مستشفى للطوارئ وعدد من المستشفيات الخاصة.

سابعاً: المباني الدينية: تنتشر المساجد في كافة أحياء المدينة، ولكن الحرم هو أهم المباني الدينية جميعاً، وتقام فيه صلاة العيد. كما يوجد بالمدينة مركز لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمساجد جميعاً مبنية بالطوب أو الحجر، ومسقوفة بالمسلح أو الأخشاب وبها مراوح لتجديد الهواء،

ثامناً: المقابر: توجد بمكة مقبرة واحدة هي مقبرة المعلاة، وإن كانت مقسّمة إلى جزئين بينهما شارع مرصوف وكلاهما حوله سور.

تاسعاً: الترفيه والرياضة: وتقتصر على نادي الوحدة في غرب مكة ومتنزه

كبير (متنزه البلدية)، وبعض الكازينوهات والمقاهي في منطقة الحوض، ويشمل المخطط الجديد مساحات مخصصة للحدائق والمتنزهات.

عاشراً : الطرق : وأهمها الطريقان الرئيسيان إلى جدة ـ الطائف، ثم تأتي بعد ذلك الطرق الرئيسية داخل مكة، وأهمها : شارع الغزة (الذي يبدأ من الحرم إلى مركز البريد)، وشارع المنصور، وشارع الجفاير، وتتصل هذه الطرق الرئيسية بالطرق الأخرى الفرعية، مكونةً شبكةً داخل المدينة. وتجري الآن عمليات شق الشوارع وفق المخطط المقترح الجديد، كما أن طريق مكة ـ منطقة شعائر الحج أصبح من طرق الدرجة الأولى المرصوفة، مما سيكون له أثر كبير على التطور العمراني لمدينة مكة، حيث إنه يساعد على تنشيط الحركة بين مكة والطائف على نطاق واسع، هذا بالإضافة إلى الطريق الدائري حول مكة الذي يربط بين أحيائها في سهولةٍ ويسر.

حادي عشر : المزارع : وهي عبارة عن بقع متفرقة على أطراف مكة ملك للأفراد يتخذون منها متنزهات خاصة، يزرعونها بالنخيل والخضروات والفاكهة.

ثاني عشر : أراضي فضاء : توجد أراضي فضاء بجوار مكة من الناحيتين الشرقية والغربية بصفة خاصة، وكذلك داخل المدينة، وهي أراضي مقسّمة ومخططة، وتتم فيها حركة توسّع المباني على نطاق واسع في الوقت الراهن.

ثالث عشر : الفنادق : هناك عدة فنادق من الدرجة الأولى بمدينة مكة بالقرب من الحرم، بالإضافة إلى عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية معظمها قريب من الحرم.

مخطط مكة الجديد

أعد مخطط جديد لمدينة مكة قامت بتصميمه الشركات الاستشارية مع مهندسي البلدية، وقد أقر هذا المخطط من جانب مكتب تخطيط المدن، ويشمل كافة الخطط التي طورت، وتشمل منطقة واسعة من الأراضي في الغرب والشرق.

ومن التغيرات الهامة في هذا المخطط إزالة جزء كبير من المنطقة القديمة والوسطى، وشق طرق حديثة ومتنزهات بدلاً منها، وإقامة ميادين رئيسية لتسهيل حركة السكان والحجاج. وبدون شك فإن عملية التنفيذ سوف تستغرق وقتاً من الزمن، ولكن تنفيذ المخطط سوف تنعكس آثاره على التوسع العمراني نتيجةً للنشاط الاقتصادي الذي سوف يزداد بشكل واضح.

وظائف المدينة

مهما اتسعت المدينة وازداد حجمها وتعقد تركيبها السكاني والعمراني فإنها تظل ـ رغم ذلك ـ تمثل وحدةً مركبة من مجموعة من الوظائف[1]، فالنواة القديمة للمدينة هي الأصل وهي مركزها العصبي المتمثل في شوارعها التجارية وأسواقها الرئيسية، ومع التجارة وازدهارها المستمر طال يوم العمل بالمدينة، وخاصة بعد إدخال الكهرباء، وأعربت الوظيفة التجارية عن نفسها عن طريق مضاعفة أنوار الشوارع ونوافذ عرض السلع. ومع التجارة أو قبلها أو بعدها تمثل الوظيفة الإدارية للمدينة ملمحاً من أهم ملامحها المورفولوجية، فالإدارة وظيفة للمدينة، تعني مباني ومؤسسات ومكاتب وعاملين، وهي كذلك نشاط اقتصادي يتخذ شكل الخدمات له تداعياته، وبذلك فإن التجارة والإدارة وما يتبعهما من ظهور الخدمات والصناعة تمثل الوظائف الرئيسية المؤثرة في شكل المدينة وتركيبها، فضلاً عن كونها تمثل نبض المركز اليومي في المدينة وأساس سيولتها الإقليمية Regional Mobility التي تجعل من المدينة ومنطقتها إقليم حركة، وتحقق السيولة الإقليمية الفعالة في تجانس الإقليم والتقريب حضارياً بين المدينة وريفها وباديتها[2].

ويسود في الوقت الحاضر تحليل التركيب الوظيفي للمدينة إلى الوظائف

١ـ Ernest, W. Burges, (1925), (The Growth of the City) in (The City), ed. Robert, E. Park.

٢ـ Robert, E. Dickinson (1947), (City Region and Regionalism), London, p. 96.

الأولية، وهي تمثل أصل قيام المدينة ومبرر ظهورها، وهي بالنسبة لمكة تتمثل في الوظيفتين الدينية والتجارية، ثم الوظائف التالية التي نشأت بعد ذلك كتداعيات ضرورية مرتبطة بالوظائف الأولية بدرجات شتى، وتتمثل هنا في الإدارة والخدمات بأنواعها. وفيما يلي تحليل لأهم وظائف مكة المكرمة: «الدينية، التجارية، الخدمات».

أ ـ الوظيفة الدينية:

وهي لم تمنح المدينة مركزاً مدنياً عالمياً فحسب، بل حفظتها أيضاً مذكورةً مشهورة، وتعد الكعبة المشرفة نواة هذه المدينة وقلبها، فمع نبض حركة الحج إليها والمترددين عليها استمرت مكة تؤدي وظيفتها هذه منذ رفعت قواعد البيت. لقد تغيرت عمارة الكعبة واتسعت، وتأثرت بمجالاتها الحديثة واتجاهات نموها، فالتفّ حولها عمران مكة يكتنفها ويحميها، واتجهت إليها شوارعها وحاراتها، وتداخلت معها أحياؤها. فالحرم شكل تكوين مكة، فهو أهم مكوناتها تأثيراً ووجوداً، ولم يقتصر دور الحرم تاريخياً على مدرسته الدينية والثقافية وما تمثله، بل هو بلا شك أنموذج انتشر في العالم الإسلامي فيما بعد.

وتتضح أهمية الوظيفة الدينية للمدينة المقدسة من زيادة الاهتمام بها، وتخصيص إحدى الوزارات للاهتمام بوظيفتها ـ وزارة الحج والأوقاف ـ وكذلك في الاهتمام بشق الطرق إلى الحرم والمساجد الأخرى في مكة المكرمة التي أصبحت نوايات أحيائها، وأحياناً شارعاً من شوارعها، وهي تشغل من الأحياء قلبها ـ تكرار الصورة المدنية ككل ـ ومن الشوارع رؤوسها ومن الميادين وسطها، وهي معالم الأحياء وأسماء الشوارع، إليها تتجه الطرق، وحسب مواضعها توضع خطط المباني وتنظيم المداخل، فهي نوايات تخطيطية ليس من اليسير تجاوزها، وتظهر حولها الأسواق، وتتحدد أثمان الأراضي وهي عن بعد تمثل خط أفق المدينة.

وهناك نحو سبعة مساجد كبيرة في مكة، عدا عدد آخر أكبر بكثير من المساجد الصغيرة والزوايا.

كما يؤكد الأهمية الدينية للمدينة أيضاً الزيادة المستمرة في عدد الحجاج القادمين إليها، والذي بلغ في عام ١٣٥٥ هـ نحو ٤٩٥١٧ حاجاً، ارتفع إلى ٣١٦٢٢٦ حاجاً عام ١٣٦٠ هـ، ثم إلى ١٠٠٥٧٨ حاجاً عام ١٣٧٠ هـ، ٢٩٤١١٨ حاجاً عام ١٣٨٥ هـ ونحو ٦٤٥١٨٢ حاجاً عام ١٣٩٢ هـ. ويقدر بأن عددهم قد بلغ نحو مليون حاج في العام ١٩٧٧ م، وذلك فإن تخطيط مكة لابد أن يراعى فيه محاولة الوصول إلى تحقيق المدينة لوظيفتها بكفاءة عالية، وأن يستوعب الحرم أكبر عدد ممكن من المصلّين. وزيادة الاهتمام بتوسعة مساحات وتهيئة أماكن لوقوف السيارات، فضلاً عن دورات المياه ومناهل لمياه الشرب. ولا شك أن تهيئة الفنادق المناسبة والمنازل الكافية من أساسيات توفير الراحة لمئات الألوف من الزوار. وهكذا تتداعى عن الوظيفة الدينية مجموعة أخرى من المهام التي لا يجدر إغفالها عند التخطيط لمستقبل مكة.

ويمكن القول بأن أكثر من نصف سكان مكة يعيشون على الوظيفة الدينية

للمدينة، سواء المشتغلون منهم بتلك الوظيفة مباشرةً مثل المطوفين أو خدمة المسجد والعاملين بجمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالوظائف الأخرى المترتبة عليها.

ب ـ الوظيفة التجارية :

من أقدم وظائف مكة المكرمة، وهي قد تراوحت خلال الزمن ما بين تجارة ذات مدى إقليمي محدود يشمل نجداً والحجاز، إلى المشاركة في حركة التجارة العالمية إبان ازدهار طريق التجارة القديم بين الشام واليمن. وفي العصور الحديثة عادت إليها وظيفتها التجارية الإقليمية المحدودة، وهي الآن ـ ومنذ ربع قرن ـ قد تهيأت لتصبح سوقاً لشتى البضائع العالمية، ومن شوارعها ومحلاتها يمكن شراء مجموعات متنوعة من سلع أرقى الدول الصناعية المعاصرة.

وتستوعب هذه الوظيفة ـ ما بين تجارة جملة وتجزئة ووساطة ووكالات ـ نسبةً هامة من سكان مكة العاملين؛ فقد تبين للباحث أن مجموع المؤسسات التجارية والمتصلة بها (النقل والتخزين ـ العقارات وخدمات الأعمال ـ المؤسسات المالية والعقارية) قد بلغ ٣٤٨٢ مؤسسة، بنسبة ٧٤٪ من جملة عدد المؤسسات بمكة. وبالنسبة لعدد العاملين فإن نسبة العاملين في التجارة تصل إلى نحو ٣ر٧٢٪ من مجموع العاملين بها، وإذا ما أضيف إليها العاملون في الأنشطة المتصلة بها والسابق ذكرها، فإنها ترتفع إلى نحو ٧٧٪ كما يتضح موقف تجارة التجزئة الهام، فهي وحدها تستوعب نحو ٤٧٪ من جملة العاملين في الأنشطة الاقتصادية بمكة (١٠٩٨٦ عاملاً).

والمؤسسات المستقلة ـ مركزها الرئيسي مكة وليس لها فروع خارجها ـ هي السائدة. وهذا يتفق مع سيادة تجارة التجزئة على كافة أنواع التجارة الأخرى، كما يؤكد الدور التجاري المحدود للمدينة. ولكنها من ناحية أخرى أشد جاذبية لإنشاء فروع المؤسسات التجارية لأسباب تتصل بوظيفتها الدينية، وهذا هو

السبب في نقص عدد مؤسّسات تجارة الجملة وقلّة عدد العاملين بها بالنسبة لتجارة التجزئة. فمدينة مكة إذاً تتبع تجارياً مراكز أخرى في الدولة مثل جدة والرياض والدمام، فهي سوق استهلاكية أكثر منها توزيعية أو إنتاجية.

ولا شك أن لهذه الحقيقة انعكاساتها بالنسبة لأشكال الأسواق في مكة وتركيبها، فهي تتخذ من حيث الشكل والتوزع نمطين أساسيين: الأول: هو السوق بشكله التقليدي القديم في حارات النواة القديمة وأزقتها، والبواكي التقليدية والمناضد المرصوصة أمام الدكاكين الصغيرة مع العرض المزدحم للسلع. ومن الأمثلة سوق الليل ومحال الأحياء القديمة حول المسجد الحرام.

أما النمط الثاني للأسواق فيتمثل في محلات الشوارع التجارية الحديثة، سواء في المناطق التي أعيد تخطيطها في وسط مكة أو في مناطق التعمير الحديثة بالمدينة. وهي أكثر تخصّصاً وتنظيماً. ويمكن ملاحظة ذلك من طريقة عرض السلع بالفترينات أو بالداخل، وكذلك من الإضاءة الكهربائية والإعلانات في محاور الغزة والقرارة وأجياد وغيرها من الشوارع الحديثة الواسعة. وكان من شأن ذلك أيضاً الاتجاه نحو بسط نطاق السوق على امتداد خطوط الحركة بدلاً من توفير مواقع محلية للأسواق، أو تتخذ إحدى العمائر كسوقٍ ضخم مثل عمارة عبدالله الفيصل في الغزة.

وإلى جانب هذين النمطين، يطرح التخطيط الحديث للمدينة نمطاً ثالثاً يتمثل في إقامة سوق مركزية مجمعة، يقترح لها مكان المباني القديمة التي تزال في سوق الليل والقرارة. وكذلك يتضمن التخطيط إنشاء عدد من الأسواق الصغيرة في أحياء المدينة المختلفة.

ولقد ارتبط بالوظيفتين الدينية والتجارية للمدينة مجموعة من الخدمات والوظائف أهمها ما يلي:

١ ـ **الطوافة**: وهي من أهم مهن السكان بمكة المكرمة باعتبارها مدينة حج،

ويعمل بهذه المهنة ويستفيد منها أكثر من نصف السكان. وقد نشأت مهنة الطوافة في عهد المماليك الشراكسة في عام ٧٨٥ هـ، والذين كانوا يجهلون اللغة العربية، ومن ثم كانوا بحاجة إلى من يلقنهم الأدعية على مشاعر الحج. وقد استشهد السباعي على ذلك عندما أورد قصة حج السلطان المملوكي قايتباي في ٨٨٤ هـ، حيث تقدم القاضي إبراهيم بن ظهيرة لتطويفه. ولم يذكر المؤرخون مطوفاً في مكة قبل القاضي.

ويشترط على من يمتهن الطوافة أن يكون آباؤه وأجداده قد مارسوها قبله، وأن تتوافر فيه الأمانة والمعرفة التامة بأمور الدين. والمطوّف مسؤول عن راحة الحجاج التابعين له، ويوفر لهم المسكن المناسب، ويقوم على تطويفهم وتعريفهم بمناسك الحج أو العمرة، كما يقوم على إجراءات تصعيد الحجاج إلى المشاعر المقدسة في منى وعرفات والمزدلفة، وإنهاء إجراءات سفرهم إلى بلادهم. ويكون المطوّف مسؤولاً أمام الجهات الرسمية في حالة تخلّف الحاج أو وقوع أية أضرار تلحق به. ومقابل ذلك يعطى له مبلغاً من المال تقرره الهيئة المسؤولة عن شؤون المطوّفين.

وحتى وقتٍ قريب كانت كل مجموعة من المطوفين مسؤولة تماماً عن حجاج بلدان إسلامية معينة، ولكن هذا النظام ألغي وأصبح الحاج حراً في اختيار مطوّفه، عدا حجاج الشيعة الذين لا يحق لهم النزول إلّا عند مطوفيهم الذين لا يزيد عددهم عن عشرة.

وعدد المطوّفين حوالي ٩٠٠ مطوف ومطوفة، ويتركز معظمهم في الأحياء القريبة من الحرم، مثل أجياد والقشاشية والمصافي والفلق والشامية. ويواجه المطوفون بعدة مشاكل، أهمها عدم توافر السكن المناسب للحجاج بأعدادهم المتزايدة بالقرب من الحرم، ومما اضطرهم في السنوات الأخيرة إلى استئجار مساكن في ضواحي المدينة وأطرافها. كذلك يعانون من مشكلة توفير وسائل

المواصلات وارتفاع أسعارها، ومشكلة توفير المياه للحجاج في منى وعرفات.

ومن الطريف أن الشخص الذي يقوم بالطوافة يختلف الاسم الذي يطلق عليه من جنس إلى آخر، فالعرب يطلقون عليه اسم «مطوف»، والهنود يطلقون عليه اسم «معلم»، أما الأتراك فيدعونه «بالدليل»، بينما يطلق عليه الإندونيسيون لقب «شيخ».

٢ ـ البنوك: كان الصرافون يقومون باستبدال العملات للحجاج، بالإضافة إلى بعض أعمال البنوك في نطاق محدود. ولكنه في عام ١٩٤٥ م أنشىء فرع للبنك الأهلي التجاري بمكة يؤدي جميع الأعمال المصرفية والاقتصادية للتجار والمترددين على المدينة. وفي سنة ١٩٥٢ م أنشىء فرع مؤسسة النقد السعودية ليقوم بأعمال البنك المركزي (وهي مؤسسة حكومية للأعمال المصرفية)، ويقوم بأعمال البنوك من تمويل للمشروعات، أو قبول للودائع، وصرف الشيكات، وفتح الحسابات الجارية...، وفي سنة ١٩٥٤ م أنشىء فرع بنك الرياض بمكة، ليقوم بالأعمال المصرفية المعتادة. وتقوم جميع البنوك بالمدينة في الحي التجاري بالقرب من الحرم الشريف.

٣ ـ الفنادق: ولا تخفى أهميتها بالنسبة لمدينة مكة المكرمة. وكان أول فندق حديث بها هو فندق بنك مصر (الكعكي حالياً) في حي أجياد بالقرب من الحرم، وكان يعمل في موسم الحج فقط، ولكنه الآن يعمل طوال العام. وفي الفترة الأخيرة أنشئت فنادق أخرى من الدرجة الأولى، مثل فندق الحرم أو فندق مكة، وغيرهما، ومنذ عام تقريباً بدأ تشغيل فندق مكة أنترناشيونال المجهز بكل أسباب الراحة والرفاهية، وتعقد فيه المؤتمرات أيضاً. هذا عدا عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية موزعة على شوارع مكة الرئيسية: شارع الغزة وشارع المسفلة.

٤ ـ شركات نقل الحجاج: تأسست في عام ١٩٣٤ م، ويبلغ عددها الآن ثلاث هي: الشركة العربية، وشركة المغربي، وشركة التوفيق. وتعمل في نقل

حجاج البيت الحرام إلى منطقة شعائر الحج، أو إلى المدينة المنورة بأجور محددة من قبل الجهات الرسمية. وسيارات الشركات الثلاث في حالة جيدة.

جـ ـ الوظيفة الثقافية :

تبذل الدولة ممثلةً في وزارة المعارف جهوداً واسعة لنشر التعليم بأنواعه، فهناك ٦٤ مدرسة نهارية، و ٢١ مدرسة ليلية تضم ٨٣٠ فصلاً. ويهدف التعليم هنا إلى فهم الإسلام ونشر تعاليمه وتطوير المجتمع في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها.

والمدارس الابتدائية منتشرة في جميع أحياء مكة، أما المدارس المتوسطة فهي تتركز في أحياء جرول والقرارة والششة والمعابدة والمسفلة والشبيكة وشعب علي والنزهة. وفي مكة أيضاً ثلاث مدارس ثانوية، هي: الفلاح الثانوية (مدرسة أهلية)، ومكة الثانوية (في حي الزاهر)، والعزيزية الثانوية (في حي العزيزية).

كما تهتم وزارة المعارف السعودية بمكافحة الأمية وتعليم الكبار، وتدعم هذا النوع من التعليم فنياً ومالياً وإدارياً، لذلك أنشأت العديد من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية الليلية لكي يستطيع الكبار مواصلة تعليمهم فيها. وتعنى الدولة أيضاً بالمعوقين ذهنياً أو جسمانياً، وتعمل على رعايتهم من خلال معهد النور بمكة.

ونظراً للعادات والتقاليد التي تتميز بها السعودية، فقد أنشأت إدارة خاصة بتعليم البنات تتبع وزارة المعارف لتشرف على تعليم البنات. وفي مكة ٥٦ مدرسة ابتدائية، وسبع مدارس متوسطة، ومدرستان ثانويتان لتعليم البنات، تضم ٧٣٣ فصلاً (٢٥٣٤٧ تلميذة).

وفي مكة كليتان من كليات جامعة الملك عبدالعزيز، هما كليتا الشريعة والتربية، ولكل منهما قسم للبنات. وتضم كل كلية نحو ٦٠٠ طالب وطالبة،

وتقدّم الجامعة مساعدات مالية للطلاب تتراوح ما بين ٣٠٠ ـ ٥٢٥ ريال لكل طالب شهرياً، تشجيعاً لهم على مواصلة الدراسة. ويعمل بالجامعة عدد كبير من الأساتذة في مختلف التخصصات.

بالقرب من الجامعة معهد للمعلّمين في منطقة الحوض، يلتحق به الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية، ومدة الدراسة بالمعهد عامان، يتخرج بعدها الطالب معلّماً بالمدارس الابتدائية.

وفي مكة عدة مكتبات، أهمها مكتبة الحرم، وهي المكتبة الرئيسية بالمدينة (دار الكتب بالقاهرة)، وقد أنشأت في سنة ١٢٥٧ هـ في عهد السلطان العثماني عبدالحميد. وتتبع المكتبة الرئاسة العامة للإشراف الديني، وتضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب بمختلف اللغات، من بينها ٢٠٠٠ مخطوط نادر، وكذلك مجلدات للصحف السعودية وغيرها. ويتردد على المكتبة للاستعارة أو الاطلاع أعداد تتزايد كل يوم، معظمهم (حوالي ٨٠٪ منهم) من طلبة كليتي التربية والشريعة.

د ـ الوظيفة الإدارية:

تنقسم المملكة العربية السعودية ـ إدارياً ـ إلى خمس مناطق هي:

١ ـ المنطقة الشمالية.

٢ ـ المنطقة الجنوبية.

٣ ـ المنطقة الشرقية.

٤ ـ المنطقة الغربية.

٥ ـ المنطقة الوسطى.

وكل من هذه المناطق الخمس تنقسم بدورها إلى أمارات رئيسية، فأمارات تابعة. وأمارة مكة المكرمة تتبع المنطقة الغربية التي تضمها وأمارة المدينة المنورة. ويتبع أمارة مكة مجموعة من الأمارات التابعة. وقد بلغ عدد سكان مدينة مكة في نفس الإحصاء ٣٣٦٨٠١ نسمة، فيكون نحو ٢٠٪ من مجموع سكان الأمارة.

وتضم مكة عدداً من الخدمات الإدارية على رأسها الأمارة التي تقع في شارع الروضة، وتمثل السلطة المشرفة على المصالح الحكومية بالمدينة وملحقاتها، وبها رئاسة البلدية التي تقع في حي الزاهر، وهي من أقدم بلديات الدولة، وتقوم بالإشراف على الخدمات العامة كالكهرباء والمياه والمجاري وتنفيذ المشروعات ومراقبة الطرق والترخيص، والإشراف على الأسواق والشوارع وتتبعها المطافىء، ويمثل المجلس الإداري سلطة هامة داخل مكة. ويتألف من أعضاء يمثلون جميع إدارات المدينة فيها. ومن إداراتها أيضاً دائرة الجوازات والجنسية، ومركز إحصاء النفوس، والأوقاف والمحكمة الشرعية... وتشمل المحكمة المستعجلة وكتابة العدل ومأمورية لبيت المال وإدارة شؤون الموتى. وأقامت الأمارة مركزاً للخدمة الاجتماعية بمكة لدراسة المشكلات الاجتماعية التي تواجه سكان المدينة. وقد ساهم المركز في إقامة عدد من المؤسسات الاجتماعية ودور للعجزة والأندية الرياضية ومؤسسات للتدريب على صناعات ومهن مختلفة، كما يشرف المركز على دار للتربية الاجتماعية التي تضم مدرسة للأيتام، ويصرف المركز مساعدات مالية للمستحقين.

ويشرف على الأمن في مكة ستة مخافر للشرطة تتوزع في مناطقها المختلفة. والمرجح أن يتزايد عدد المراكز الإدارية الحكومية بالمدينة تبعاً لإمكانيات نموها العالية ولاحتمالات تنمية منطقتها التابعة في المستقبل.

ولا شك أن وضع مكة كمركز إداري يتطلّب تركيزاً شديداً في الخدمات عالية المستوى، فهو يفرض توزيعاً عادلاً للخدمات حتى يتحقق الأداء بفاعلية خلال هذه المنطقة الواسعة المبعثرة السكان والسكن. وهذا يتطلب تيسير سبل الوصول من وإلى أنحاء الأمارة إلى عاصمتها، وهو هدف اتجهت برامج إنشاء الطرق إلى تحقيقه من خلال خطة لتنمية مناطق الريف والبادية في السعودية. وذلك عن طريق ربط أجزاء الدولة الواسعة بشبكة جيدة من الطرق.

هـ ـ الوظيفة الصناعية:

ولا تمثل سوى جزء ضئيل من التركيب الوظيفي للمدينة، ومعظم الصناعات هنا صناعات استهلاكية ليس لها أية دلالة إقليمية كبيرة.

ولما كانت صناعات المدن تتحدد تبعاً لعدة عوامل، منها تركيب سكان المدينة ووظائف المدينة ثم إمكانيات المدينة ومنطقتها، وهي تهدف إلى سد احتياجات سكان المدينة والإقليم التابع الذي تستمد منه المادة الخام في أغلب الأحيان. فمن الطبيعي أن تمثل صناعات السوق الاستهلاكية (الملابس ـ المشروبات ـ الطباعة ـ المواد الغذائية ـ الأثاث ـ البلاستيك...) المادة الأولى في قائمة الصناعات بمكة مع التأكيد على ضآلة نصيبها من جملة النشاط الاقتصادي العام وذلك بالمقارنة مع التجارة، خاصةً من ناحية المؤسسات أو عدد المشتغلين بها.

والصناعات الاستهلاكية المشار إليها يمكن اعتبارها أيضاً ضمن صناعة الخدمات Services Industries، حيث يمثل التسويق جزءاً هاماً من اقتصادياتها، كما أنها تتم في السوق أو بالقرب منه، وتمثل حاجة مشتركة لجملة السكان. ومن المتوقع أن يتزايد عدد المؤسسات الصناعية الاستهلاكية بالمدينة تبعاً لتزايد دخول الأفراد وارتفاع مستوى معيشتهم.

وتمثل مؤسسات المواد الغذائية والمشروبات والتبغ أكبر عدد من المؤسسات

الصناعية في مكة (١٨٢ مؤسسة ـ ٥٨٠ عاملاً)، يليها المؤسسات العاملة في المنسوجات والملابس الجاهزة والجلود (١٤٢ مؤسسة ـ ٢٧٢ عاملاً)، ثم مؤسسات الأثاث (٤٣ مؤسسة ـ ١٠٢ عاملاً)، والطباعة والنشر (١٦ مؤسسة ـ ٣٨ عاملاً)، ثم صناعات البلاستيك (مصنع واحد ـ ٢٣ عاملاً).

ويلاحظ أن صناعة الطباعة والنشر بمكة جاءت لارتباطها بوظيفة المدينة كعاصمة إدارية وكمركز تجاري وبؤرة للخدمات التعليمية والثقافية، وما يتطلبه ذلك من طبع للإعلانات والفواتير والأغلفة والمنشورات والكراسات وغير ذلك. كما أن من الصناعات الاستهلاكية ما ظهر كضرورة لأحوال المناخ بالمنطقة أو كضرورة للعمل على راحة الحجاج مثل صناعة الثلج التي أنشأت وأنشىء لها مصنع كبير على الطريق إلى منى. وهكذا فإننا نجد أن بعض الصناعات بمكة قد ظهرت كتداعيات لوظائف المدينة الأخرى المتعددة، وهذا بدون شك مفيد من الناحية الاقتصادية. وهذه الصناعات ترتبط في نموها بنمو وظائف المدينة كماً وكيفاً.

أما مصنع البلاستيك بمكة المكرمة فهو مصنع صغير أنشىء في عام ١٩٧٢م في منطقة التناعيم، وينتج الأكياس البلاستيك والأكواب وجراكل المياه... وإنتاجه لا يكفي احتياجات المدينة المتزايدة، وهناك مشروع لإنشاء مصنع آخر.

والجدير بالذكر هنا أن معظم ما يطلق عليه اسم «مصنع» في مكة ليس إلّا دكاكين صغيرة موزعة في أنحائها، ولا يزيد عدد العمال في أي منها ـ غالباً ـ عن خمسة أفراد. وهذا يجعلنا نؤكد مرة أخرى بأن الصناعة في مكة لا تمثل إلّا ظلاً باهتاً في اقتصادياتها، ولا تستخدم من الأيدي العاملة إلا عدداً ضئيلاً.

سكان مكة المكرمة:

كان سكان مكة في بدء ظهورها يعملون في خدمة القوافل وزوار البيت، وكان عددهم ضئيلاً تبعاً لإمكانيات الموضع المحدودة. وعندما جاهر الرسول

بدعوته وهاجر وأصحابه إلى المدينة المنورة، انخفض عدد سكان مكّة بشدة، كذلك انخفض عددهم مرةً أخرى بسبب خروج معظمهم للجهاد ونشر الدعوة.

وقد مرت مكة بعد ذلك بعدة ظروف، جعلت سكانها يتأرجحون بين الزيادة والنقصان، إلّا أن عددهم بلغ حوالي مائة ألف نسمة في عام ١٩٥٠م، يتوزعون على أحيائها القديمة المحيطة بالحرم مثل أجياد والقرارة والشبيكة والمسفلة وغيرها. ثم ارتفع عددهم بمعدلات سريعة بعد ذلك، نتيجة لاهتمام الدولة بالمدينة المقدسة باعتبارها مدينة حج وعاصمة لأهم أماراتها، والتوسع السكني بالمدينة، مما ساعد على ظهور أحياء جديدة مثل العزيزية والنزهة، بالإضافة إلى توافر الخدمات والمرافق الحيوية بالمدينة.

وقد أجري أول تعداد للسكان في السعودية في عام ١٩٧٤ م (١٣٩٤ هـ)، وكان الغرض منه وضع حد للتقديرات المختلفة عن عدد السكان، والاستفادة منه في خطط التنمية في شتى المجالات.

وقد أوضحت البيانات الأولية التي نشرت عن هذا التعداد أن سكان السعودية بلغ ٧٠١٢٦٤٢ نسمة[1]، إلّا أن نتائج التعداد التفصيلية لم يعلق منها سوى بيانات توزيع السكان على المدن الرئيسية والأمارات والمناطق، أما النتائج التفصيلية الأخرى عن التركيب العمري والنوعي والاقتصادي والتعليمي وغيرها فلم تعلن حتى الآن على الرغم من مرور أربع سنوات على إجرائه، الأمر الذي يخشى معه أن يحلّ به ما حدث لحصر السكان عام ١٩٦٢ م.

ومن تعداد ١٩٧٤ م يتبين أن عدد سكان مكة قد بلغوا ٣٦٦٨٠١ نسمة، وبذلك فهي ثالثة مدن السعودية من حيث عدد السكان بعد كل من الرياض (٦٦٦٨٤٠ نسمة) وجدة (٥١٦١٠٤ نسمة)، ولكنها تسبق الطائف من حيث

١ ـ المملكة العربية السعودية، مصلحة الإحصاء العامة (١٣٩٦هـ)، التعداد العام للسكان لعام ١٣٩٤هـ، البيانات الأولية: ٣، مطابع المنطقة الوسطى، الرياض.

عدد السكان (٢٠٤٨٠٧ نسمة) والمدينة (١٩٨١٨٦ نسمة).

وكانت مكة المكرمة وحتى وقت قريب أكبر مدن السعودية من حيث عدد السكان، إلّا أنّ اتخاذ مدينة الرياض عاصمةً للمملكة، وازدهار ميناء جدة تبعاً لازدياد النشاط العمراني والاقتصادي في المملكة، بالإضافة إلى أنها مقرّ البعثات الدبلوماسية، دفع بالمدينتين (الرياض وجدة) إلى المركز الأول والثاني بين مدن السعودية من حيث عدد السكان.

ومع هذا، فقد شهدت منطقة مكة زيادة سكانية ضخمة لم تشهدها منطقة أخرى في السعودية، مما جعلها إقليم النقل السكاني بالمملكة. ويعود ذلك إلى الموقع الجغرافي المميز، والمركز الديني المرموق الذي يتفرد به، بالإضافة إلى برامج التنمية ومشاريع التعمير بالمنطقة.

وحتى منتصف الثلاثينيات لم تكن هناك مدن بالمفهوم الحقيقي لمعنى حضر سوى بعض المدن الحجازية مثل: مكة، والمدينة، والطائف، وما عدا ذلك فيعد في حكم البلدان Towns أو القرى Villages. ولكن كان لاكتشاف بترول المنطقة الشرقية أثر في ارتفاع معدلات النمو السكاني في السعودية عامة، والمنطقة الشرقية بوجه خاص، مما أدى إلى ظهور مدن الزيت ـ الدمام، والخبر، والظهران، وأبقيق، والخفجي ـ وتحوّل أعداد كبيرة من البدو الرحّل إلى سكان مستقرين.

وفي أوائل الخمسينيات لم تكن هناك سوى مدينة واحدة في المملكة التي تجاوز عدد سكانها مائة ألف نسمة هي مكة المكرمة، أما الرياض وجدة فلم يكن عدد السكان في أيهما يتجاوز الثمانين ألفاً من السكان.

وقد قدر عدد سكان المدن السعودية في عام ١٩٦٢ م بحوالي ٩٦٩١٣٤ نسمة، وفي عام ١٩٧٤ م بلغ عدد ٢٦٦٤٢٢٠ نسمة، أي عدد سكان المدن بالمملكة ازداد خلال ١٢ سنة ١٦٩٥٠٨٦ نسمة، وكانت نسبة التغير خلال الفترة (١٧٥٪) وبزيادة سنوية قدرها ٥ر١٤٪، وقد سجلت كل من الرياض والطائف والدمام وجدة أعلى نسبة (٨ر٢٠ ـ ٥ر٢٤٪)، ثم المدينة (٦ر١٤٪)، ومكة (٩ر١٠٪)، ونجران (٦ر٩٪)، وبريدة (٣ر٨٪)، وأبها (٦٪) أما كل من الهفوف وجيزان وحائل وعنيزة فقد سجلت كل منها أقل من ٤٪.

وعلى هذا، فإنه حسب إحصاء ١٩٧٤م لا تضمّ السعودية سوى مدينتين نصف مليونية، هما الرياض وجدة، كما أن المدن التي يزيد عدد سكان كل منها على ٢٠٠ ألف نسمة تتركز في غرب المملكة، وتطل على البحر الأحمر أو بالقرب منه فيما عدا الرياض.

وحسب إحصاء ١٩٧٤ م أيضاً فإن السعودية تضم أكبر عدد من البدو في العالم، وأعلى نسبة منهم أيضاً بالقياس إلى جملة السكان. فعددهم يصل إلى ١٨٨٣٩٨٧، بنسبة ٨ر٢٦٪ من جملة السكان. ولكن توجد عدة مشروعات لتوطين البدو في السعودية، يمكن أن تؤدي إلى تقليل أعدادهم ونسبتهم تدريجياً، كما يلاحظ أن حياتهم بدأت تتحول بالفعل. فوسائلهم في الحصول على المياه أدركها تغيّر كبير، وبعضهم يستخدم سيارات نقل المياه في جلب مياه الشرب اللازمة لقطعانه من الآبار، ويستخدم السيارات في الحصول على حاجته من الأخشاب بدلاً من استخدام الإبل في ذلك أو نقل قطعانه إلى موارد المياه[1].

١ ـ أحمد علي إسماعيل، (١٩٧٦)، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية: ١٤٨، القاهرة.

ورغم أن التوزيع النوعي للسكان غير معروف إلا أن النسبة النوعية بين الذكور والإناث تتراوح بين ١١٠ ـ ١٣٠ في كل من الرياض وجدة ومكة والمدينة والطائف، حيث تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث فيها جميعاً. وهذا يرجع إلى تدفق المهاجرين إلى هذه المدن سواء من داخل السعودية أو خارجها. وكانت نسبة توزيع السكان حسب فئات العمر في مكة كما يلي عام ١٩٧٤ م مقارنةً بالنسبة العامة في المملكة.

	أقل من ١٠ سنة	من ١٠ ـ ٢٩	٣٠ ـ ٤٠	أكثر من ٥٠ سنة
مكّة	٣٥ر٥	٣٨	١٩ر٥	٧
المملكة	٣٧ر٨	٣٠ر٥	٢١ر٤	١٠

ويرجع ارتفاع نسبة الفئتين: الأولى والثانية عن معدل السعودية إلى أن منطقة مكة المكرمة بما تشهد من مشاريع عمرانية ضخمة، وتوسع في إنشاء المعاهد والكليات، تعد من مراكز جذب الشباب للعمل أو التعلم.

وقد بلغ معدل نمو السكان السنوي في المملكة في منتصف الستينيات (١٩٦٥م) نحو ٢٠ر٧٪، وعلى هذا قدر عدد السكان سنة ١٩٦٥ م بحوالي ٥٣٦٢٢٨٦ نسمة. ولكن معدل النمو ارتفع في أوائل السبعينيات إلى ٢ر٩٪، وارتفع تبعاً لذلك عدد السكان عام ١٩٧٠ م إلى ٦١٩٩١٧٦ نسمة، وأصبح معدل النمو السنوي في منتصف السبعينيات ٣٪، ولذلك ينتظر أن يرتفع عددهم إلى نحو ٨ مليون نسمة في عام ١٩٨٠ م.

والسبب في هذه الزيادة المطردة للسكان يعود إلى انتهاء عصر المجاعات والأوبئة، وظهور البترول عام ١٩٣٨، ثم دخول البلاد في مرحلة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية كما أن البلاد لم تشهد خلال هذه الفترة هجرةً واسعة للخارج، وذلك لتوافر كثير من العوامل المشجعة على الاستقرار والبقاء، كما أنه بالنسبة للمنطقة الغربية بالذات، فكان للرخاء الاقتصادي والنشاط

العمراني الكبير بها، وقيام كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة فيها، ما جعلها عرضة لزيادة غير طبيعية كبيرة.

وتختلف نسب توزيع السكان بين مستقرين ورحّل إلى حد كبير بين مكة وجملة الأمارة، فبينما تصل نسبة السكان المستقرين في مكة إلى نحو ٩٩ر٧٪ (٣٦٦٠١٢ نسمة)، فإن نسبة المستقرين في جملة الأمارة تبلغ ٨٦ر٢٪ (١٥١٣٦٣٤ نسمة)، أما الرحّل فإن عددهم في قلة ٧٨٩ نسمة (٣٪)، وفي جملة الأمارة ٢٤٠٤٧٤ نسمة (١٣ر٨٪) متوزعون على عدد من المدن الصغيرة والقرى ومحلات الرحل.

وحسب تعداد ١٩٧٤ م فإن عدد الأسر في مكة يبلغ ٦٧٩٤٧ أسرة، ومتوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة ٥ر٤ فرداً. ونسبة غير السعوديين بمكة ٢٦ر٦٪ من جملة عدد السكان بها. وتشهد المدينة زيادة سكانية هائلة في موسم الحج يقدّر بثلاثة أضعاف عدد سكانها الأصليين.

ومن خلال الدراسة الميدانية (٧٤ / ١٩٧٥ م) أمكن للباحث تقدير عدد السكان والكثافة

الحي	المساحة(بالهكتار)	عدد السكان (بالألف)	الكثافة (نسمة / هكتار)
المعابدة....	١٨٦	١٧ر٦	٩٤ر٦
الفيصلية....	٩٦٢	٢٤ر٤	٢٥ر٤
الجميزة...	٤٥	١٥ر٨	٣٥١ر١
شعب عامر...	٤٦	-ر٢٧	٤٥٦ر٥
السليمانية...	٤٥	١٤ر٨	٤٢٢ر٩
سوق الليل...	٢٥	٧ر٨	-ر٣١٢
القشاشية...	٨	٣ر٣	٤١٢ر٥
النقا...	٣١	٥ر٢	١٦٧ر٧
جرول	٩٦	-ر٢٠	٢٠٨ر٣
التنضباوي...	٢٣٠	-ر٤٦	-ر٢٠٠
الهنداوية...	١٢٧	٢٥ر٨	٢٠٣ر١

القرارة...	٦	٥ر٥	٩١٦ر٧
الشامية...	٢٦	٨ر٢	٣١٥ر٤
أجياد...	١٠٥	٢٢ر٥	٢١٤ر٣
المسفلة...	٢١١	-ر٤٣	٢٠٣ر٨
لعتيبية...	١٢٤	٣١ر٢	٢٥١ر٦
الشبيكة...	١٦	١٠ر٢	-ر٦٠٠
حارة الباب...	٢١	٦ر٧	-ر٣١٩
الزهراء...	١٠٦	-ر٤	٣٧ر٧
النزهة...	١١٠	٢ر٨	٢٥ر٥
الزاهر...	١٣٥	-ر٣١	٢٢٩ر٥

ومن الجدول السابق يتضح أن أكبر عدد للسكان يتركز في أحياء التنضباوي (٤٦ ألف نسمة)، والمسفلة (٤٣ ألف نسمة)، والعتيبية (٢ر٣١ ألف نسمة)، والزاهر (٣١ ألف نسمة)، والهنداوية (٨ر٢٥ نسمة)، أما أقل عدد للسكان في النزهة (٢٨٠٠ نسمة)، والقشاشية (٣٣٠٠ نسمة)، والزهراء (٤٠٠٠ نسمة)، والنقا (٥٢٠٠ نسمة)، والقرارة (٥٥٠٠ نسمة).

ومن الجدول أيضاً يلاحظ بأن أعلى كثافة سكانية تقع في أحياء القرارة (٧ر٩١٦ نسمة / هكتار)، والشبيكة (٦٠٠ نسمة / هكتار)، وشعب عامر (٥ر٤٥٦ نسمة / هكتار)، والسليمانية (٩ر٤٢٢ نسمة / هكتار)، والقشاشية (٥ر٤١٢ نسمة / هكتار)، أما أقل كثافة للسكان ففي أحياء الفيصلية (٤ر٢٥ نسمة / هكتار)، والزهراء (٧ر٣٧)، والمعابدة (٦ر٩٤).

وعلى هذا، فإنه على الرغم من أن القرارة ليست أكبر الأحياء من حيث عدد السكان، إلا أنها أعلاها من حيث الكثافة السكانية (٧ر٩١٦ نسمة / هكتار)، وذلك يرجع إلى أن القرارة أصغر أحياء مكة مساحة (٦هكتار فقط)، وأقربها إلى الحرم في نفس الوقت. على حين أن حيّ التنضباوي أكبر أحياء مكة المكرمة من حيث عدد السكان (٤٦ ألف نسمة) ليس كذلك من حيث الكثافة، إذ يأتي ترتيبه

السادس عشر (٢٠٠ نسمة / هكتار)، والسبب في ذلك يعود إلى اتساع مساحته (٢٣٠ هكتار)، بالإضافة إلى أنه يضم عدداً من الجبال والتلال، وبُعده عن الحرم قلب المدينة وقوامها.

إقليم مكة المكرمة :

تميل كل مدينة كبيرة إلى تنظيم إقليمها الذي تقوم بينها وبينه علاقات مشتركة. وهناك معايير عديدة يمكن الاعتماد عليها في تحديد إقليم المدينة، يتمثل بعضها في تسهيلات النقل، وفي كثافة وحركة السكان، والمدى الذي تصل إليه خدماتها التعليمية والصحية والترفيهية والثقافية وغيرها[1].

ولا شك أن مكة المكرمة تسيطر سيطرةً تامة على إقليمها، وتقوم بينها وبينه علاقات مشتركة واسعة، فإليها يأتي أبناء المناطق المحيطة للعمل والتعلم، وإليها أيضاً يأتي المزارعون في الوديان القريبة لتسويق منتجاتهم، وشراء ما يلزمهم من أسواق المدينة، أو للتردّد على المصالح الحكومية وعيادات الأطباء.

ولكننا هنا إزاء مدينة لها شأن كبير ليس في المملكة العربية السعودية فحسب، بل في العالم كله عامة، والعالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة نظراً لوضعها الديني كمدينة حج الإسلام. ولذلك فإننا نقصر الدراسة هنا على تحديد الإقليم الديني للمدينة اعتماداً على الإحصاء الخاص بالحجاج حسب جنسياتهم عام ١٣٩٢هـ.

فمن واقع الإحصاء المذكور بلغ عدد الحجاج ٦٤٥١٨٢ حاجاً، منهم ٢٨٣٧٠١ من البلاد العربية، والجدول التالي يبين عدد حجاج كل دولة عربية عام ١٣٩٢ هـ.

اسم الدولة	عدد الحجاج	اسم الدولة	عدد الحجاج
الأردن	١٢٨٥١	لبنان	٥٣٥٥
الجزائر	٢٢٩٤٥	ليبيا	٣٠٧٠٥

(١) محمد محمد سطيحه، (١٩٧١)، خرائط التوزيعات الجغرافية: ٧٥ ـ ٧٦، القاهرة.

السودان	٣٣٢٢٢	مصر	٣٦٤٥٢
العراق	٣٥٥٦٧	الجنوب العربي	٢٤٩٦
الكويت	٦٥١٤	أبو ظبي	٨٠٦
المغرب	١٤٩٢٣	البحرين	٢٠٥٦
اليمن	٥٤٠٨٢	دبي	٢٨٥
تونس	٨١٦٨	عمان	٣٣٨٤
سوريا	١٠٤٤٨	أمارات أخرى	١٠٠٨
فلسطين	١١٣٥	أمارات أخرى	٣٤٣
موريتانيا	٩٥٦	مجموع حجاج البلاد العربية	٢٨٣٧٠١

ومن الجدول يتبين بأن أكبر عدد يأتي من اليمن (٥٤٠٨٢ حاجاً)، ثم مصر (٣٦٤٥٢ حاجاً)،والعراق (٣٥٥٦٧ حاجاً)، يليهم السودان (٣٣٢٢٢ حاجاً)، ثم ليبيا (٣٠٧٠٥ حاجاً). ولكن إذا عرفنا بأن السعودية تعمل على تشجيع اليمنيين على الحج والعمل فيها، وتعفيهم من رسوم الدخول إلى المملكة، فإن هذا يضع مصر في المركز الأول من حيث عدد الحجاج إلى مكة المكرمة.

أما أقلّ عدد من الحجاج ـ بالنسبة للدول العربية ـ فيأتي من دبي (٢٨٥ حاجاً)، وأبو ظبي (٨٠٦ حاجاً). ويمثل حجاج الدول العربية ـ قلب العالم الإسلامي ـ ٩ر٤٣٪ من مجموع عدد الحجاج سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٤ م).

والجدول التالي يبين أعداد حجاج أهم دول العالم سنة ١٣٩٢ هـ فيما عدا الدول العربية.

الدولة	عدد الحجاج	الدولة	عدد الحجاج
اتحاد ماليزيا	١٢٩٨٣	إثيوبيا	٣٦٥٩
أفغانستان	٦٢٢٠	السنغال	٣٢٣٣
الهند	١٩٨٧٩	النيجر	٢٤٥٤
إندونيسيا	٤٠٦٦٨	الصومال	٢٨٤٢
إيران	٥٧٢٣٠	الكامرون	٢٢٤٥
باكستان	٦٥٨٦٦	تشاد	٢٧٩٨
تركيا	٣٦٢٥٨	غينيا	٢٨٠٢

دول أسيوية أخرى	٥٢٩١	نيجيريا	٣٨٨٦٩
مجموع حجاج آسيا	٢٤٤٤٠٤	أوغندا	٢٧٧٤
بريطانيا	١٦٢٨	جنوب أفريقيا	٢٨٤٠
فرنسا	٥٠٢	دول إفريقية أخرى	٩٩٨١
اليونان	٣٩٠	مجموع حجاج إفريقيا	٧٤٤٩٧
إسبانيا	٢٠٠	الدول الأمريكية	٩٩
مجموع حجاج أوروبا	٤٩٨٠	مجموع الحجاج	٣٦١٤٨١

ومن الجدول السابق يتضح أن عدد الحجاج من خارج الدول العربية قد بلغ ٣٦١٤٨١ حاجاً، يمثلون ١ر٥٢٪ من المجموع العام للحجاج في عام ١٣٩٢هـ، وقد أتى معظمهم من الدول الآسيوية (٢٤٤٤٠٤ حاجاً، يمثلون ٦ر٦٧٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، ٨ر٣٧٪ من المجموع العام للحجاج، يليهم حجاج إفريقيا (٧٤٤٩٧ حاجاً يمثلون ٦ر٢٠٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، ٥ر١١٪ من المجموع العام للحجاج. هذا بينما يمثل حجاج دول أوروبا وأمريكا نسبةً ضئيلة، ولا يزيد عددهم على ٥٠٩٧ حاجاً.

ومن بين دول آسيا، فإن الباكستان هي أكبر الدول إرسالاً للحجاج (٦٥٨٦٦ حاجاً)، بل إنها أول دول العالم في هذا الشأن، يليها إيران (٥٧٢٣٠ حاجاً) التي تحتل المركز الثاني بين دول آسيا ودول العالم أيضاً، ثم تأتي كل من تركيا والهند في المركزين الثالث والرابع على الترتيب.

أما دول إفريقيا، فإن نيجيريا أول الدول من حيث عدد الحجاج (٣٨٨٦٩ حاجاً)، يليها كل من إثيوبيا (٣٦٥٩ حاجاً)، والسنغال (٣٢٣٣ حاجاً).

وعلى هذا، يتبين لنا أن إقليم مكة الديني يضم البلاد العربية جميعاً والدول الآسيوية المحيطة بها، حيث يأتي منها كل عام ما يزيد على ٩٥٪ من عدد المترددين على المدينة لتأدية فريضة الحج أو التجارة، ويبقى منهم بالمدينة كل عام أعداد لا يستهان بها، وخاصة من الحجاج اليمنيين الذين تصرّح لهم السلطات السعودية بالعمل في أراضيها.

خاتمة

مما سبق يتضح لنا مدى الأهمية الدينية لمكة المكرمة، المدينة التي يفد إليها في موسم الحج من كل عام أكثر من ستمائة ألف نسمة بخلاف أعداد كبيرة أيضاً من المعتمرين على مدار السنة يقدرهم البعض بما يقرب من ربع مليون نسمة، يأتون إلى المدينة من مختلف أنحاء العالم.

وهذا دون شك ألقى مسؤولية كبيرة وعبئاً ضخماً على كاهل القائمين بالأمر في المملكة العربية السعودية، مسؤولية إعاشة الأعداد الهائلة من البشر، وتهيئة سبل الإقامة والراحة لهم، وعبء انتقالاتهم من مكان إلى آخر داخل المملكة. ولذلك خصّصت وزارة للحج والأوقاف، كما أنشيء جهاز يتولّى كل ما يتعلق من مشروعات خاصة بتوسعة الحرمين (الرئاسة العامة لتوسعة الحرمين الشريفين). وعلى الرغم من أن هناك بعض المراحل لتوسعة الحرم قد تمت بالفعل، إلّا أنه من المؤكد أن مشروعات التوسعة لن تنتهي، فهي تستأنف مرحلة بعد أخرى مع تزايد أعداد المسلمين والأفواج الهائلة من الحجاج. فعند آخر توسعة تمت بالمسجد الحرام في زمن الخليفة المقتدر بالله ظلّت مساحة المسجد كما هي بدون زيادة أكثر من ألف عام، واستمر البناء حوله حتى اتصلت به المنازل، لدرجة أن المباني الخاصة قد فصلت ما بين المسعى وبين المسجد نفسه، حتى أصبح المسعى عبارة عن طريق ضيقة، تقوم على جانبيها المحلات والمنازل، وكانت مساحة المسجد لا تتعدى ٢٩ ألف متر مربع. ولكنه في عام ١٩٥٥ م ـ ١٣٧٥هـ بُدىء في التمهيد لأعمال توسعة المسجد، وتحويل الطريق ومجرى السيل في وقت واحد، فتم هدم جميع المباني اللازمة في المرحلة الأولى، ثم حفرت أساسات الجدار الخارجي للتوسعة في القسم الأكبر من منطقة المسعى، وفي أجياد من جانب المسعى إلى ما يقابل باب أم هانىء. ولكي تتحقق التوسعة كان لابد من ضم المسعى إلى المسجد، وإلغاء الطريق الذي يخترق المسعى وتحويله إلى ما وراء الصفا خارج

حدود الحرم.

ولقد بلغ طول المسعى من الداخل ما بين الصفا والمروة ٣٩٥ متراً، ومن الخارج ٤٠٠ م. وعرضه ٢٠ م، وارتفاع طابقه الأول ١٣ م. أما الطابق الثاني للمسعى الذي خصص للصلاة تابع للمسجد، فبلغ ارتفاعه ٩ م. وأما المبنى القديم فقد أبقي عليه كأثر من الآثر القديمة، وتم تنميق القديم والجديد من جميع الجهات تقريباً.

وتبلغ مساحة الحرم بعد انتهاء أعمال التوسعة حوالي ١٩٠ ألف متر مربع، ويتسع حالياً لأكثر من ٦٠٠ ألف مصلٍّ. ومن المشاريع المتمّمة للتوسعة مكتبة خاصة للحرم الشريف تسمى مكتبة مكة المكرمة، أختير لها المكان المقابل لباب الملك عبدالعزيز.

وتحت الدراسة الآن عدة مشاريع، أهمها مشروع توسعة المطاف بحيث تعادل مساحته ضعفي المساحة الحالية، ومشروع تكييف المطاف، ومشروع توسعة زمزم مع تكييف منطقة البئر وتبريد مياهه.

وعلى الرغم من ضخامة المشاريع الجاري تنفيذها أو المقترحة، فإن الباحث يرى بعض الاقتراحات التي يمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ فيما يختصّ بالحرم نقترح عمل توسعة جديدة له بما يعادل نصف مساحته الحالية على الأقل لمواجهة الأعداد المتزايدة من الحجاج أو المعتمرين، خاصة وأن هناك مساحات من الأراضي المجاورة التي يمكن استخدامها في التوسعة المقترحة. كما نرى ضرورة توسعة الشوارع المحيطة بالحرم والتي تشهد في موسم الحج ازدحاماً كبيراً بسبب عرقلة حركة المرور بالمنطقة، ويمكن هنا إنشاء بعض الشوارع العلوية مما يحقق سيولة الحركة بالمنطقة.

٢ ـ فيما يختصّ بمدينة مكة المكرمة نقترح سرعة الانتهاء من إتمام مشاريع الصرف الصحي بالمدينة، وتوصيل مياه الشرب إلى المنازل عن طريق المواسير

بدلاً من استخدام الوايتات أو السقايين، وهذا يساعد على الحدّ من انتشار الأمراض والأوبئة خاصة في موسم الحج، حيث يأتي إلى المدينة حجاج من مختلف الجنسيات والبيئات.

كذلك نقترح إعداد تخطيط جديد للمدينة ككل، يتمشى مع متطلبات المدينة الحديثة ويحافظ على آثارها الإسلامية القديمة وطابعها المميز في نفس الوقت.

ونقترح أيضاً ضرورة البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة احتياجات السكان المتزايدة ومشاريع التعمير.

كذلك يجب الاهتمام بإنشاء الفنادق والمساكن، سواء على أطراف المدينة أو في منى؛ لاستيعاب أكبر عدد من الحجاج، والتقليل قدر الإمكان من استخدام الخيام منعاً للحرائق والأمراض.